رواية

صبحي فحماوي

صبايا في العشرينات

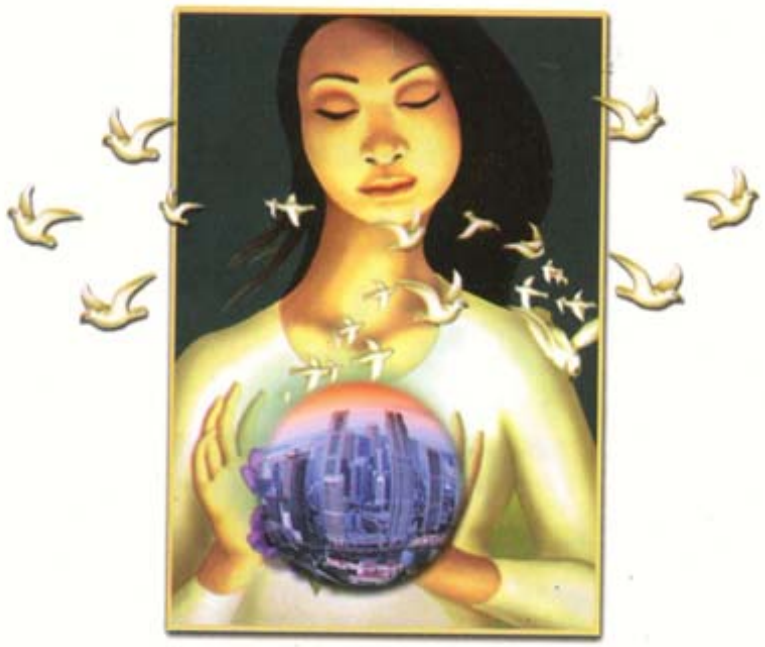

مدبولي الصغير

مكتبة ديوان العرب يقدم لكم

صبايا في العشرينات

مجموعة قصصية

للكاتب الأردني صبحي فحماوي

قراءة.
محمد المشايخ.

تتلخص اتجاهات القصة القصيرة في الأردن، منذ النشأة وحتى الآن، في الاتجاه الواقعي الاجتماعي، الذي يميل إلى تحليل الواقع وتناقضاته، وفقاً لمنظورات جدلية، وفي الاتجاه الواقعي الملتزم بالقضية الفلسطينية. وفي الاتجاه الرمزي الذي يختلف في طبيعته، بين كاتب وآخر، ممن يندريجون تحت إطاره، وفي الاتجاه الفلسفي، أو المثالي الذي يتناول الفكرة الفلسفية، ويجعل منها أساساً للعمل القصصي، وأخيراً الاتجاه الرومانسي، الذي ما زال يلقي بظلاله على عدد لا بأس به من المجموعات القصصية، التي تشهدها المملكة بين آونة وأخرى .

وتوحي قصص هذه المجموعة لقارئها، بأن كاتبها نسيج وحده، على صعيد الكتابة القصصية، فهو غير متأثر بمطالعاته القصصية للآخرين، ونسيج وحده، تكتمل في التعدد والتنوع الذي يضفيه على قصصه. فلكل قصة عالمها وأجوائها، التي لا تمت لسابقتها أو لاحقتها بصلة. وهو حين يتعامل مع فن القصة، فانه يكتب من برج القصة العاجي، إذ لديه المعرفة الكاملة والشاملة عما يكتب، وكأن القصة بين يديه في النهاية، قصيدة لا تحتمل التقديم، ولا التأخير، ولا التغيير ولا التبديل لكلمة، أو لموقعها، إذ ثمة معمار فني، ولد واكتمل، وإحداث أي تماس معه، ربما يؤدي لإفساد جماليته .

شخصيات قصص صبحي فحماوي، تسير ضمن احتمالات ثلاثة :

- كما رسمها هو شخصياً،
- وكما تتصور نفسها،
- وكما يتصورها القارئ.

وهكذا أحدث القاص تعدداً في الأصوات، فبطل قصة (صبايا في العشرينات) على سبيل المثال، رسمت له زوجه، وأسرته في أمريكا نمطاً وطنياً مستنيراً، ورسمت له العائلة التي زارها نمط الفحل، ورسم لنفسه ما ورد على لسان نزار قباني (لو تعلمين ما الأربعين. وما الذي يعنيه حب الأربعين) أما القاص، فقال على لسان الزوجة المقيمة في أمريكا (لا حل أمامنا سوى العودة إلى بلادنا، بلاد العرب) .

وأشبع القاص بعض قصصه، بما يشغل روح الإنسان في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الذي تستشرفه، الأمر الذي أحدث نقلة كبيرة في فن القصة التقليدي .الذي كان يتكئ على بداية وحبكة ونهاية. فألبسه شكلاً آخر مجزأ الأوصال، مفكك الحبكة، يتكىء على الصعود والهبوط، بدلاً من الانطلاق من الصفر، إلى قمة الهرم وذروته، وهو يعالج موضوع الساعة، في عصر الآلة، وخاصة في أول قصة في المجموعة (الصناديق العملاقة) فهي مليئة بالدلالات والإيحاءات التي توصل الإنسان إلى مرحلة الاختناق، مما أحدثته التكنولوجيا، حين يربطها بمعطيات الأيديولوجيا، فيقول في بداية القصة (الصناديق تتكاثر في كل مكان، في غرفة الجلوس، وفي غرفة النوم، والمطبخ، وكلها صناديق بلاستيكية، وكان يشعر إنه يعيش في عصر البلاستيك، هذا الصندوق كمبيوتر، وذاك الصندوق تلفزيون، وهذا الصندوق

ثلاجة، وذاك الصندوق غسالة، وهذا الصندوق خزانة، والكرسي والطاولة على هيئة صناديق ..) وقبل نهاية القصة يقول (يا جماعة الإمبريالية أحسن، على الأقل لا يستخدمون أصابعهم في لعق الدماء العربية. كانوا يستخدمون الشوكة والسكين، والآن يعودون في استخدام أصابعهم، في لعق الدماء...) وفي نهاية القصة يندثر بطلها (أبو الحداثة). دون أن يعرف (إذا كان اندثاره بواسطة أنابيب الغاز المسيل للدماء، أم بأشعة ليزر الخارقة الحارقة، أم بتكنولوجيا حداثية لم يعرف سرها بعد) .

ونؤكد هنا على استخدام القاص لأسلوب التتابع التكراري لمواصفات الشخصيات، الذي يعني تنمية القصة، من خلال إعادة نفخ الروح فيها، بصورة جديدة في كل مرة، مع انطوائها على الجوهر الواحد، وتوسيع أفقه، والإضافة إليه، وهذا تكرار مقصود، وفيه مهارة فنية ....ففي قصة أبو خليل نجد الأب يبحث عن مولده الحلُم (خليل)، وفي أعماقه تداعيات وآمال وطموحات، فتطلب منه الممرضة أن يبحث عنه في غرفة الخداج، ولما لم يجده، أحالته إلى غرفة الأطفال الحلوين، وعندما لم يعثر عليه، أحالته إلى غرفة الأطفال العاديين، ثم إلى غرفة الأطفال البشعين، ثم إلى غرفة الأطفال المعوقين، ثم إلى غرفة (حالة خليل) ليصل القاص إلى أن الطفل نسيج نفسه، وليس كما أراد له أبوه.

وكذلك قصة (ابن العائلة) يرسم فيها الأب والأم صورة تليق بكل منهما للابن، ويكرران تلك المواصفات، ثم يسقط الطفل جريحاً، ولدى حاجته للدم، يتبين أنه ليس طفلهما، فلقد تم استبداله يوم ولادته في المستشفى، وعندما يتسلمان طفلهما الحقيقي، يكرران أنه ما زال رغم تغييره جذريا (مهيوب المهيوب).

وفي باب شخصيات قصص صبحي فحماوي، نشير إلى أنه أبدع في خلق نموذجية للشخصيات، التي يختفي وراءها القاص ؛ الشاهد والمبدع، كما أبدع في نمط القص، فثمة سرد قصصي، المشهد يتحقق بالحوار والمونولوج وتحدد الأصوات، ومن ورائه يمتلك القاص حرية واسعة في تنويع الصياغة، وحركة الفعل، وزمان ومكان القص،وهنا تتضح ملامح أيديولوجيا صبحي فحماوي وجرأته، وخاصة في قصته (الصوملة)، وكذلك قصة(المدير العام).

ومارس صبحي فحماوي في مجموعته هذه ما يسمى باللوحات القصصية، حيث تناول أحداثا ممزوجة بشكل غير طبيعي، بهدف إعادة ترتيبها وتسلسلها بشكل منطقي، يوازي ما هو معروف ومألوف في واقعنا،وليس بالضرورة للقارئ أن تكون نتيجة هذا التشكيل إيجابية، إذ أن الوقائع التاريخية الماضية والحاضرة والمستقبلية تستجيب لتشكيله، علما بأن القارئ نفسه يرفض المستجدات المترتبة على ذلك،خذ مثلا قصة اللعب علي الحبال حيث ترى فيها المقاطع التالية:

" وقذفوا بباقي المتشردين شرق نهر الأردن."

" وقذفوا بمن لم يقتل شرق نهر دجلة."

" وقذفوا بهم شرق طهران..."

" وقذفوا بمن نجا من الموت بأعجوبة إلى شرق الباكستان."

"وشردوا من لم يقتل، وقذفوا بهم إلى جنوب ماليزيا."

إن رصد القاص لردود الأفعال، إزاء تلك الممارسات الواقعية والمتخيلة، لم يمنعه وهو الذي لا يكتب إلا لهدف، ولإيصال رسالة نبيلة، ليقول في نهاية القصة، على لسان أحد شخصياتها: تدربنا على الحبال، يعلمنا أنكم كلما

قذفتمونا على أقصى حبال الدنيا، فإن ارتدادنا سيكون أعظم، فلو هجرتمونا إلى شرق أندونيسيا، فسوف نرتد من هناك الى شرق البحر الأبيض المتوسط، وعلى الشاطئ تماما، لنبني بيوتا بديلة للتي هدمتموها، إنها نظرية علمية بحتة :

(لكل فعل رد فعل، مساو له في القوة،ومضاض له في الاتجاه) .

وضمن رغبته الجامحة في إحداث نقلة موضوعية وجمالية في قصصه، لجأ للكتابة القصصية المتضمنة بعض العناصر الخاصة بفن السينما، على بعد المشاهد والوقائع الحياتية التي عكسها في قصصه هنا، ورواياته سابقا، حيث أن معظمها جاهز لأن يتحول إلى قصص ومسلسلات سينمائية، أو تمثيليات إذاعية .

ومارست قصص صبحي فحماوي مهمة الاحتيال على اللغة، فطوّعتها لتستوعب شفافية القاص، وتشويقه ودغدغته للعواطف، فلوى عنقها، لتستجيب للدفق القصصي المنساب بحرية، بحيث لا يعكر صفوه أي تكلف، والمندفع بقوة، بحيث لا يخدش كبرياءه أي تصنّع، فكان قادراً على أهم عنصر في البلاغة العربية في القصص، وهو التجسيد، والذي يؤدي لنفخ الروح في الجمادات، فإذا هي كائنات تتحرك، وسرعان ما تتمرد على واقعها، وعلى مبدعها، كما هو الحال مثلاً في قصة (الراقصة اللولبية)، فالراقصة من نسيج خياله، وتتحرك في ملهى الخيال، وفي النهاية، نجدها تسبب إحراجاً للمؤلف، وحتى للمجتمع وللسلطة، فيضطر إلى تقديم شكوى بحقها، بعد أن كان مطلوباً منه تحمل مسؤولية ما ارتكبته من جرائم اجتماعية!

وبقدر إتقان القاص للغة العربية الفصيحة، نجده يتقن التصرف باللهجة العامية، ويلجأ إليها، لإيصال ما في داخل العامة من الأميين، من مشاعر وأحاسيس مكبوتة، سحب القاص فتيلها، فانفجرت على الورق، كاشفة النقاب عما يختفي في القلوب، والجيوب، والبيوت المستورة.

بعض قصص هذه المجموعة، لجأت للفنتازيا، في مقاطع محددة، وحملت لواء الثورة المضادة للعقلانية، ورفضت حدود المنطق العقلي التقليدي، وكان هدف القاص من وراء ذلك، إبراز الفوضى الحضارية والفكرية، التي تعم حياتنا المعاصرة، والتي ترفض الاعتراف بالأمور الواقعية التقليدية، ولذلك نجده يعكس الحقائق والمسلمات، ليرينا إلى أين وصلت الإنسانية في استخفافها بإنسانية الإنسان، في الوقت الذي ما زالت تطالب فيه بالرفق بالحيوان، يتضح ذلك في قصة (الطائرة الورقية) على سبيل المثال، فيجعل بعض شخصيات القصة تقول بأن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان الفلسطيني، وتعذيبه، وتكسير عظامه(مناظر تفقّع من الضحك !)

وضمن السخرية المُرّة التي يكرسها في بعض القصص، نجد من يسير في مظاهرة وطنية عربية، ويردد وراء من يهتف : بدنا الوحدة العربية،، بقوله : بدنا واحدة عربية !

كما توقفت بعض قصص المجموعة عند الزمن التاريخي الذي يمثل ذاكرة البشرية، ويسقط خبرة الإنسان على خط الزمن العام، بثوابته وقياساته، وكان ذلك واضحاً في قصة (بعثة تقصي الحقائق، في قصة جزاء سنمار) ولا نعني هنا اتكاء القاص على الموروث، وإعادة البحث في مسلماته، بقدر ما نعني إسقاط الماضي على الحاضر، وكشف النقاب عن المستور والمحظور، سواء في بعض الجوانب التراثية ذات الهالة المسكوت عما فيها من تجاوزات غير

حقيقية، أو إعادة أو سحب البساط من تحت أقدام بعض الشخصيات التي خلّدها التاريخ، بسمات ومواصفات، قد تكون غير حقيقية .

وفي بعض القصص، تكريس للزمن الكوني المتميز بخاصية التكرار اللانهائية، اتضح ذلك في قصة (البواخر) التي تناقش بموضوعية وعقلانية، موضوع هجرة اليهود عبر التاريخ، والصراع الذي أوجدوه، وما زالت رحاه مستمرة !

واتكأت بعض قصص المجموعة على الزمن النفسي الذي لا يخضع لمعايير خارجية، أو مقاييس موضوعية، حيث تتداخل الأزمنة في وعي الشخصية، وتتدفق كنهر، ويكون المونولوج إطاراً تتداخل فيه عناصر الزمن، والصور والرموز، لتصوير الذات في تفاعلاتها معه، وقد اتضح ذلك في قصة (عذاب السوق) تلك القصة التي عددت بعض عذابات وأرق الجماهير، على مدار الساعة، سواء في علاقات الإنسان مع مجتمعه الكبير، أو الصغير، وعلاقته بالقطاعين العام والخاص، وما يشوب تلك العلاقات من منغصات، سطرها القاص بدقة وإخلاص.

وواكب القاص الحساسية الجديدة، التي مارسها بعض المبدعين في الوطن العربي، فكتب إلى جانب القصة القصيرة، الأقصوصة، أو القصة القصيرة جداً، وهنا ركز على قصر مدة الشريط اللغوي الذي تتألف منه القصة، وما يمكن أن يتركه هذا القصر على الصياغة، وعلى عالم القصة، ويتركها في الوقت نفسه، إمكانية مفتوحة لتشكيل قصصي أطول، وقد تبدى ذلك في قصص (الرجل الرمادي، تقاعد، مبيعات روائية، تسمين الخراف، سوء تفاهم، جميلة بوحيرد، عبد الواحد)، فجميعها تختار لحظة أساسية في حياة الإنسان، أي لحظة تحول حقيقي في حياة الإنسان الداخلية والخارجية، وهو تحول كامل، وليس مسطحاً ولا عشوائياً، بل عميقاً عمق الإنسان ...أو ليس أدل على ذلك، من قيام بطل قصة تقاعد، بإجراء تحاليل طبية واجتماعية، ليتمكن من كشف النقاب عن الشخصيات التي تعامل معها المتقاعد، ومثله كثيرون في واقعنا؟

الصناديق العملاقة !

العالم يفقد يوما بعد يوم روح المرح - *ميلان كونديرا* .

الصناديق تتكاثر في كل مكان، في غرفة الجلوس، وفي غرفة النوم، والمطبخ، وكلها صناديق بلاستيكية.هذا الحداثي يشعر أنه يعيش في عصر البلاستيك ؛ فهذا الصندوق كمبيوتر، وذاك الصندوق تلفاز، وهذا الصندوق ثلاجة، وذاك الصندوق غسالة، وهذا الصندوق خزانة، وهذا الصندوق الكبير سرير، والكرسي والطاولة والمنضدة ؛ على هيئة صناديق، وهذه الـ.. صناديق تتراكم فوق صناديق. والحداثي يتحرك بين هذه الصناديق، فرحاً سعيداً بأن كل شيء متوفر لديه، فهو يشاهد كل الأخبار، ويتصل بالأصدقاء والأصحاب، والذين يعرفهم أو لا يعرفهم، بالهاتف وبالكمبيوتر.. وعندما توفي أبوه ؛ أبو الحداثة، كان مشغولاً، فلم يحضر جنازته، بل أرسل له رسالة تعزية بالكمبيوتر، ولكنه دهش وتعقّد، لأن أباه لم يكن عنده إشتراك مع الإنترنت .. جاءت شركة دفن الموتى، فأخذوا جثته ودفنوها، دون أن يمشي في جنازته مودِّع واحد. ولكن الشركة اتّبعت الأصول، فصورت فيلماً وثائقياً عن موت أبي الحداثة، مدمجة فيه صوراً اصطناعية، لحشود كبيرة من المشيعين، حضرت وشاركت في موكب الجنازة والدفن، وسلّمته للابن الحداثي، الذي احتفظ به، وبثه للملايين من أصدقائه عبر الأنترنت.

الأطفال في الأعياد يلعبون بمكعبات الليجو، يُركِّبونها، مكعبات فوق مكعبات، فيبنون دوراً وعمارات، ويصنعون بها سيارات. صناديق صغيرة، يصنعون بها ديناصورات ورجالاً آليين، ويعملون بها كعكة عيد ميلاد..مكعبات فوق مكعبات..صناديق فوق صناديق.. والحداثي يجلس، وعيناه مبحلقتان في التلفاز، لمشاهدة هذه الصناديق وهي تتكاثر كالفطريات، ولكنها فطريات عملاقة، فطريات ديناصورية، الصناديق تكبر! بالأمس اشترى تلفازاً أكبر، كان مائة بوصة. كأنه شاشة سينما. إشتراه بالإنترنت. وبسرعة دخل رجال الليون، ومعهم الشاشة الكبيرة، دون أسلاك، أو أجهزة مرافقة ، فركّبوها على الحائط، على شكل لوحة فنية، وفحصوا وضبطوا أجهزة التحكم عن بعد، ودفع الحداثي ثمنها للشركة، بالبريد الرقمي. صارت غرفته تصغر، بسبب الاقتصاد في النفقة، والصناديق البلاستيكية تكبر، نظراً لحاجته الماسة لأشياء كثيرة، لم يعد قادراً على الذهاب إلى السوق يومياً، ولا أسبوعياً، ولا حتى.. لإحضارها، فصار يطلب صناديقها، ليخزنها داخل غرفته، ولهذا صار الحداثي يشعر أنه أصغر وأصغر، وسط هذا الركام من الصناديق، التي تبدو وكأنها غابة من مكعبات (الليجو).

لم يذهب الحداثي إلى المدرسة. هل تعرف أن أباه ؛ أبو الحداثة، هو مخترع فكرة إلغاء المدارس، صار التلميذ يجلس على مقعد أو كرسي، ويضع على رأسه أسلاكاً ومرابط مغناطيسية، موصولة بجهاز الكمبيوتر، ويأتي بمادة الرياضيات أو العلوم أو الدين أو الجغرافيا، مطبوعة على الموقع الإلكتروني، ويشبك الموقع بالأسلاك الممغنطة مع رأسه، فتدخل العلوم إلى رأسه، تماماً كما يسجل أي قرص أو شريط أغاني.. هذا الشريط يسجل جغرافيا، أو لغة عربية داخل دماغه، فيخرج خلال ثوان معدودات وقد فهم كل المادة العلمية، أو الأدبية التي كانت تحتاج منه إلى فصل دراسي لاستيعابها، أصبحت الآن،

مجرد تسجيل من صندوق الكمبيوتر إلى صندوق رأسه، المسألة أصبحت مسألة صناديق.! وبذلك انقرضت حكاية المدارس، وباصات ذاهبة بالطلاب، وباصات عائدة. وطلاب غائبون، وإنذارات، ومشاكل ! كل ذلك انتهى .أصبحت عملية تسجيل الدروس والمعلومات، تتم فوراً من خلال أقراص الأسطوانات ؛ يدخل القرص، فيخرج الحداثي مكتمل العلوم. لم يخرج الحداثي من شقته منذ عشر سنوات...تجده يدخل الحمام، يجلس على المرحاض، فتذهب الفضلات بالمجاري تحت الأرض، ثم يستحم، فتذهب المياه في المجاري تحت الأرض، ويأكل. يُحضِر له رجال آليون، مكتوب عليهم (التوصيل المجاني)... كل شيء واصل.. وهو يشاهدهم بجهاز المراقبة المجاور للتلفزيون، من يدخل أو يخرج لشقته مراقب، وجهاز الإنذار يصرخ إذا حصلت أي عملية سطو أو عنف .. تجد شرطة النجدة، برجالها الآليين، أو آلية الدفاع المدني أمامه، خلال دقائق.. وهو يرسم مخططات معمارية لعمارات ناطحات السحاب، ويرسل رسوماته للمكتب الهندسي الاستشاري، من خلال البريد الرقمي، وراتبه يصل إلى البنك بالبريد الرقمي... تكاثرت الصناديق، وارتفع منسوبها داخل الشقة..

وأما عن أحداث الشارع، فالمظاهرات السياسية والاقتصادية والبيئية والعولمية تملأ شوارع العالم. وهو يشاهد كل شيء.. فهو مثقف وليس غبياً، إنه يعرف كل ما يدور حوله، وفي القرية الصغيرة، التي هي الاسم الجديد للكرة الأرضية..الحداثي مُطّلع على القرية الصغيرة، ويشارك في المظاهرات من خلال الاستبيانات الرقمية على مواقع الكمبيوتر، ويرفض الهيمنة على نفط العرب، وضرب آخر معقل للنفط في العراق، ويرفض هدم جرافات الكاتربلر لبيوت الفلسطينيين، وقتلهم وتشريد من لم يقتل منهم. كل ذلك من خلال الإنترنت.. صار له أصدقاء عديدون في الهند والسند والشرق والغرب، وبلاد واق الواق، فمن خلال الإنترنت، يرسل لهم كلهم في مناسبات الأعياد السعيدة، بطاقة تهنئة واحدة موحدة، لثلاثة وثلاثين مليون صديق، في القارات الخمس، وكل ذلك ضمن القرية الصغيرة ...

تحولت القارات الخمس إلى حارات خمس، في القرية الصغيرة، وضاقت شقته المتواضعة بالصناديق المتراكمة. صار الحداثي يضحك. فهو مستنسخ من أبيه العبقري أبو الحداثة، الذي ذاع صيته أكثر من (بل جيتس) أبو الكمبيوتر، ولكنه لم يجمع مليارات الدولارات مثل بل جيتس، بل جمع مليارات الملاليم، ولكن عقليته الفذة، جعلتهم يستنسخون منه مخلوقاً آخر، سموه الحداثي. ونجحت التجربة. وفرح فريق أطباء (وكالة دوللي)، والتي تبنت الاستنساخ الأخلاقي، وليس الاستنساخ القذر. حيث أن (وكالة العسكر) قد استنسخت رجالاً، كُل منهم مثل اللّوح! لايفهم ولا يستفهم ..تأتيه أوامر الكمبيوتر: طُخ ! فيطُخ . دمِّر! فيدمر. احرق! فيحرق. اعتذر! فيعتذر عما حصل، وذلك بعد خراب مالطا طبعاً !

هذا الحداثي شخصية فذّة، والصناديق لديه ترتفع وتتشابك! شعر أنه مثل رواية الأقزام في بلاد العمالقة. صارت الصناديق عملاقة، وهو قزم صغير، مثل ميكي ماوس! شعر أنه فأر صغير، يركض في سراديب ضيقة، بين الصناديق العملاقة.

وأخيراً قرر أن يخرج من محطته الصغيرة، والتي تشبه محطة مير الفضائية، قرر الخروج منها إلى الهواء الطلق، إلى الشارع، قرر أن يشارك في مظاهرة، حشدت لها كل محطات التلفزة والإنترنت في القرية الصندوقية المسماة الكرة الأرضية ،وذلك للتظاهر ضد عودة الإمبريالية إلى عصر الاستعمار القديم

. يا جماعة الإمبريالية أحسن! على الأقل لا يستخدم الغربيون أصابعهم في لقع الدماء العربية. كانوا يستخدمون الشوكة والسكين. والآن يعودون لاستخدام أيديهم و أصابعهم في لعق الدماء!

قام الحداثي للتظاهر، فخرج من شقته إلى الشارع العام، حيث شاهد العمارات على شكل صناديق ناطحات سحاب، والسيارات صناديق متحركة، والتماثيل صناديق مختلفة أشكالها وألوانها. كان عدد المتظاهرين واحداً، فصار هو ثانياً. سار الإثنان في الطريق السريع، فشعرا بضآلتهما، وصغر حجميهما في تلك الطرق الانسيابية ، كان الحداثي بحجم ميكي، والآخر بحجم ماوس، فلم يستطيعا الاستمرار في التظاهرة، حيث اندثرا! لا يعرف هو شخصياً ما إذا كان دثره قد تم بواسطة أنابيب الغاز المسيل للدماء، أم بأشعة ليزر الخارقة الحارقة، أم بتكنولوجيا حداثية لم يعرف سرها بعد!

صبايا في العشرينات!

لطمت أم إبراهيم خديها لطمات متلاحقة، بينما دموعها تنهمر مبللة شعر ذؤابتيها، اللتين يختلط بشعرهما الأسود، قليل من الشعر الأ شيب، وهي تعول : "الحق، كل الحق علي أنا. أنا السبب! أنا التي قلت له: - البنات كبرن يا أبو إبراهيم، ويجب أن نبحث لهن عن عرسان، ولا حل أمامنا سوى العودة إلى بلادنا ؛ بلاد العرب، ونعيش هناك، لنجد لهن عرساناً يتزوجوهن. وأنت تعرف يا ابو إبراهيم أن البنات في أمريكا لايتزوجن، ولا يتنيلن! وكل واحدة منهن، تضطر أن تبحث لها عن صاحب يعرفها اليوم، ولا يتعرف عليها غداً، وكان الله بالسر عليماً، ونحن العرب لانقبل بهذا، ونريد لبناتنا ستراً وغطاءً!"

سمع أبو إبراهيم الكلام يا حبيبي ! وسافر إلى الأردن، واشترى أرضاً في غرب عمان، وبنى عليها فُلّة فخمة. وهذا البناء تطلب تردد زياراته إلى الأردن.. يغيب شهرين في عمان، ثم يعود ليقضي شهراً في أمريكا." إلى أين أنت ذاهب يا أبو إبراهيم؟" " إلى الأردن."

" من أين أنت قادم يا أبو إبراهيم ؟" " من الأردن" أصبح وكأنه يشتغل على الخط: (عمان- سان فرانسيسكو- عمان)، وكأنه مثل خط (عمان زي السلط). وأنا التي تحمّله الهدايا والأغراض. "أمانة يا أبو إبراهيم أن تأخذ معك دولارات، مساعدات لأطفال الحجارة في فلسطين. هؤلاء يا قلبي حيث لا طعام ولا شراب، تراهم يطبخون الحجارة ويشربون ماءها، ثم بعد ذلك يرمون عظم الحجارة على الإسرائيليين، محتلي ديارهم." أوصيه دائماً :" خذ معك دولارات، وانفقها في سبيل الله!" وهو يقول : "حاضر يا مرة حاضر."

"ادفع لأطفال الحجارة دواءهم وطعامهم وكساءهم" ألحقه إلى باب الطائرة وأنا أوصي:" اذهب يا أبو إبراهيم إلى القدس، وصلي هناك في الأقصى، وادفع للصامدين، يدفع الله عنك البلاء، والمرض والعوز."

لكن أبو إبراهيم – لا داعي لطول السيرة- لم يكن يذهب إلى أطفال الحجارة ، بل كان يشرف على بناء البيت في النهار، ويسهر، وينام الليل في بيت (أبو سوسن)، وفي المساء تأتي "بنت السلطان" إلى (أبو إبراهيم)، رجل الكاوبوي المتأمرك، وتنحني أمامه، مثل انحناء أعمدة العروبة أمام.. وبيدها صينية الشاي، أو القهوة، وهي محجبة... "بنتنا لاتسلّم يا (أبو إبراهيم). بالقوة استطعنا أن ندفعها دفعاً ، لتظهر عليك، وتقدم لك الشاي في الصالة.. بنتنا ليس لها فم يا أبو إبراهيم..

سوسن كانت الأولى في المدرسة، لكننا لا نريد علماً، فكما يقولون : (الأدب فضلوه على العلم) .. سوسن (ما باس فمها إلا أمها).. سوسن (يا أبو إبراهيم) تطبخ كل أنواع الأطعمة العربية الشهية.. طبيخها لذيذ، فأنت تأكل أصابعها وراء الأكل! ..البنت خجولة ودلّوعة.. الملعونة جمالها ساحر، عيناها بحيرتان صافيتان! انظر إليها! خداها كالتفاحتين! ماشاء الله وتبارك!.." سوسن لاترضى أن تزور صاحباتها. نحن لانتركها تذهب خارج البيت، ولذلك تزورها صاحباتها في بيتنا، فيصنعن ملابس صوفية، ويرسمن ويلعبن، فتسمع أصواتهن من قاع الدار، إلا صوت سوسن، فلا تكاد تسمعه أبداً!"

كانت مهمة أبو إبراهيم، هي التحضير لهبوط اضطراري أمريكي لأفراد أسرتنا في الأردن، بعد قضاء حياة، مدتها خمس وعشرون سنة.

ذهب أبو إبراهيم (يقشش) لنا، كما تصنع العصفورة قشة فوق قشة، لتعمل عشاً تبيض فيه، ثم يفقس البيض فراخاً. كان همنا هو وجود بيت في الأردن، نعود من أمريكا لنعيش فيه، ونخطط لبناتنا، ليتزوجن ويفقسن أولاداً وبناتاً، حسب العادات والشرع والدين، الذي يقول : "تزاوجوا، تكاثروا، فإنني مباه بكم الأمم يوم القيامة!" لكن أبو إبراهيم انحرف عن خط سيره، فبدل أن يفكر في بناته، فكر في سوسن!.."بنت ليس لها فم.(ما باس فمها إلا أمها!)" وبعد أن زفّر أبو إبراهيم نفسه بنصف بنات سان فرانسسكو، جاء ليتطهر ويتنسك على سجادة سوسن!

الآن اكتشفت أنه لم يزر القدس، ولا أطفال حجارتها، وأنه لم يدفع دولاراً واحداً لتبديل طبيخ الماء والحجارة لهم، بالخضار واللحم، ولم يكس عري واحد منهم، بل اكتفى بكساء عري سوسن، التي لم ينقصها مال ولا جاه، ولا شباب يتزوجونها مثل الورود في عمان!

كان أهل سوسن هم أطفال حجارة أبو إبراهيم – لا داعي لإطالة السيرة- استطاعت سوسن أن تُنفِّس كل عجلات أبو إبراهيم، وقالت له ولّادة بنت المستكفي :

كل السيوف جوارح إن جرِّدت وحسام لحظك جارح في غمده،

إن شئت تقتلني فأنت محكّم من ذا يجادل سيداً في حكمه.

وأبو إبراهيم الذي كان في الخمسين من عمره، وادّعى أمامها أنه في الأربعينات، وقال لها بالاقتباس من نزار قباني:

لو تعلمين ما الأربعين، وما الذي يعنيه حب الأربعين.

وهكذا قرر أبو إبراهيم؛ والد الصبايا الأربع، والشابين التاجرين العملاقين ؛ إبراهيم وخليل اللذان يعملان مع والدهما في نفس الدكان، في سان فرانسسكو. استطاع أن يحوِّل خطته الدفاعية، إلى خطة هجومية، فبدل أن يردع الضغط الذي تتعرض له بناته العربيات المسلمات في سان فرانسيسكو، حيث أصبحن صبايا في العشرينات من أعمارهن، وأصبح الجنس يطرق أجسادهن، طرق الطبول المتوحشة، في قاعات رقص (الروك اند رول) الصاخب، وبدل أن يدافع عن أجساد بناته التي بدأت تلتهب في حر أمريكا المدهش، والذي يجنن العاقل، تحوّل للهجوم على جسد سوسن، وقرر أن يخطب ست الحسن والجمال، وأن يتزوجها، وأن يعود بها إلى أمريكا، ويقدمها أختاً خامسة لبناته، وأي أخت؟

عاد أبو إبراهيم إلى سان فرانسيسكو، كما يعود القائد المنهزم في ساحة الحرب..طبعاً قادتنا المهزومون، يعودون رافعي الرؤوس، ولذلك ترك زوجي بيتنا غرب عمان، بعد أن اكتمل بناؤه، وعاد على عكس المهزومين.. كان رأسه مطأطئاً، وعيناه في الأرض، ذلك لأن أبناءه وبناته وأنا (الملطوشة) زوجته، كنا جميعاً نقف مشدوهين لمشاهدة "عريس الغفلة" أبو إبراهيم، وعروسه سوسن، ينزلان على سلم الطائرة، وقد فرشنا لهما البساط الأحمر، من أول درجات الطائرة، وحتى البحر المحيط! واصطف حرس الشرف لاستقباله، وأطلقت المدفعية من فمي واحداً وعشرين طلقة، وقدّم أبو إبراهيم زوجته سوسن إلى حرس الشرف المكون من إبراهيم وخليل وأم إبراهيم وعائدة وماجدة وناهدة وساجدة، ثم ذهب العروسان إلى شهر

العسل، وذهب إبراهيم وأخوه خليل إلى الدكان، للعمل بدل أبيهم، الذي تقاعد على أحضان سوسن، بدل أن يتقاعد على سجادة الصلاة.

وأما البنات الأربع، فقد انتشرت كل منهن، تبحث عن صاحب، تقضي معه وقتها، يعرفها اليوم، وينساها غداً، فهذا لا يهم، المهم أن تعيش يومها، بعد أن فقدت ربان سفينتها. وأما أنا (الملطوشة) ، فبقيت واقفة مهدودة الجهد، في أرض المطـــــار، غيـــــر قـــــادرة علـــــى التفكيـــــر فـــــي شـــــيء .

الرأي 2002

الراقصة اللولبية!

-1

أريد أن أؤلف قصة، تدور أحداثها حول راقصة محترفة. كان الفرنسي موليير يستشير خادمته، ليسمع تعليقها على المسرحية التي يؤلفها، وذلك قبل عرضها على من يهمه الأمر، أما أنا ؛ العبد لله ، فليس لدي خادمة أستشيرها، وحتى لو كانت، فلن أستشرها، ذلك لأنني عربي، فردي، دكتاتوري، ولا أستشير أحداً، فالمستشارون عندنا لا يستشارون، وإذا استشيروا، فإنما هم يقدمون أفكار من عينهم، هم مرايا رؤسائهم، يعكسون لهم صورهم. أريد أن أخلق شخصية راقصة ترقص في ملهى.

أتخيل أن تكون الراقصة شقراء، طويلة، ذات نهدين أبيضين، مثل كرتين من قشطة الحليب، نافرتين ممتلئتين، بحجم رمانتين، ولها بطن ضامر، وفخذين ممتلئتين.. وأنا بالطبع أقتبس المعلومات من الشعراء والأدباء، فامرؤ القيس يقول في معلقته :

هصرت بفودي رأسها فتمايلت عليّ هضيم الكشح، ريّا المخلخل

أريد أن تكون عيناها ملونتان، زرقاوان، فالعرب السمر يحبون العيون الملونة، وأهل شمال أوروبا الشقر يحبون العيون السوداء. بالطبع ستكون باسمة وخجولة وشبه عارية، وشعرها متوسط الطول، كي تستطيع أن تحركه يميناً وشمالاً، أو أن ترفعه وتنزله وهي ترقص، أريد أن تكون مناطق الإثارة فيها، مغطاة بأربع أوراق من التوت.. هنا وهناك، وهنا وهناك. المجموع أربع ورقات من التوت، ستكون توتاً من الورق الملوّن- الإمبريالية تضع نموراً من ورق، وأنا أضع توتاً من ورق- لاحظ كم أنا فرائحي ومسالم! وفي كل رقصة، تستطيع تغيير لون الورق، من أخضر إلى نحاسي، أو برونزي، أو بني، أو مصفر، أو أية ألوان تظهر بها أوراق التوت، منذ تفتحها، وحتى موسم تساقطها في الخريف. أريد أن أسميها (الراقصة اللولبية مهلبية). وأريد أن يكون اسم الملهى الذي سترقص فيه (ملهى الخيال).

-2

إعلام مكثف يعلن عن سهرات ممتعة في (ملهى الخيال). اللافتات تملأ الشوارع، وإعلانات الصحف والمجلات ومحطات الإذاعة والتلفزة.. منشورات توزع على أبواب كل شركة، وكل مكتب، وكل بيت، وتشبك على كل سيارة.. يضعونها تحت مساحات زجاج السيارات، فيشاهدها صاحب السيارة خائفاً، معتقداً أنها مخالفة من شرطي المرور! صارت منشورات الراقصة توزع، بدل منشورات الحزب الشيوعي السرية أيام زمان، الدنيا قلبت بعد البرسترويكا، صار عاليها سافلها ياغور بتشوف .

الإعلانات تقول :"الراقصة اللولبية مهلبية تتألق في ملهى الخيال." "العالمة مهلبية ترقص فوق طاولات الزبائن، وتعبئ لهم الكؤوس!"

"الراقصة العبقرية مهلبية تدهش مشاهدينها، فيصفقون لها:

" ثاني. ثاني، يا ست!"
وهكذا يا سادة يا كرام، اشتهر ملهى الخيال،
وسهرت فيه النساء والرجال،
ولم تحرم الراقصة مهلبية فيه، جمالها عن كل ذي بال،
وفي السر، ومخالفين لأنظمة الملهى، ارتادوه حتى الأطفال!"
وكانت الراقصة اللامعة مهلبية، تظهر في رقصات محددة، ثم تختفي وراء ستائر المسرح، ثم يأتي الشيخ فلحوص الساحر، فيقدم ألعاباً سحرية.. ليس هذا هو المهم، المهم هو غياب الراقصة اللهلوبة الموهوبة مهلبية!
أين تذهب طيلة ذلك الغياب خلف الستائر؟ قال أحد رواد الملهى : "هذا غموض الأدب!" وقال ذو شعر كثيف :
"هذا غموض قلة الأدب!" وقال ثالث مدحبر:
"رائعة! رائعة! تألقي يا مهلبية!" وقالت امرأة غيور على زوجها :
"هل هي أحلى مني ؟!" فقال لها الزوج الذي يشجع الأهلي:
"قومي ارقصي لنا مثلها يا ملكة جمال الأرز!" وقال أحد السكارى :
"لو عندي امرأة مثل مهلبية!" فقال له نديمه :
"لكنت صديق العالم كله !"
الدخان يعبق المكان ويغلق الجو، والسجائر تطفأ بالنعال على الأرض، ولهذا لم يضعوا سجاداً على الأرض. مجرد بلاط رخام مجلي وملمع، جاهز لإطفاء السجائر عليه. بث مباشر، فريق رائع من عازفي الناي والعود وضارب الطبل !
"يا أخي أهلك الطبل وهو يضربه بالعصا! يضرب الطبل، ويرقص مع الراقصة مثل ظلها، وهي تُثبِّت على أطراف أصابعها (طقّاشات فضية)، لتعطي نغماً مصاحباً للاهتزازات اللحمية المتناسقة."
"نحن نحب اللحم!" قال أحدهم وهو يهف الدخان المتكاثف أمام وجهه:
"لم نعد نرى شيئاً!" وقال تاجر سكير:
"المفروض أن يكون في القاعة مكيفات وندبلكس."
(هذه اللحظات للإعلان.)
(مكيفات وندبلكس، تشفط الهواء المدخن، وتبرز لنا اللحوم المدخنة!)
"أموت أنا في اللحوم المدخنة؟" صاح سكير نحيل مثل قرن الخروب!
"كأساً آخر؟" سألت النادلة ؟
"كأساً (أخرى!)" قال الزبون قليل الأدب. زعلت النادلة، ولكنها قالت :
"الزبون دائماً على حق."
الناس في عصر العولمة يا عمي لم تعد تذهب إلى المخابز، أو إلى محلات الخضار والفواكه، أو إلى العيادات الطبية، وحتى أن بعضهم لم يعد يذهب إلى المدارس.. صاروا يسهرون الليل في ملهى الخيال، وينامون النهار. وساحت الأمور على بعضها !

-3

حصلت مشكلة كبرى. سرت إشاعة مفادها أن بعض طلاب المدارس صاروا يتعاطون المخدرات، وأن الفقراء منهم يشمون (التنر)، ودلت استخبارات الشرطة، ورجال المباحث، أنّ امرأة تدير وكراً للدعارة، اسمها مهلبية، وهذه

المهلبية، كانت تعمل راقصة في ملهى الخيال، ولكنها اختفت منذ اسبوع، ولم يعثر لها صاحب الملهى على أثر.. اختفت آثارها، والملهى في مصيبة!

الإعلام يضغط... والجمهور محتشد أمام الملهى ...

"لانريد إلا مهلبية !"

"لا نريد إلا مهلبية !"

"مهلبية. مهلبية!"

"دونك يا مهلبية، عيشتنا ردية !"

خسارة مالية كبيرة على صاحب الملهى!

الرجل المسكين استثمر كل أمواله، وكل استثماراته الاستثمارية، في هذا الاستثمار المستثمر! كارثة. كارثة حقيقية !

المصيبة أنّ بعض أطفال المدارس لهم ضلع في الشبكة التي تديرها الراقصة مهلبية، يجلس طالب مدرسة في (لوبي) المراحيض، ويضع أمامه طاولة عليها صرر ورقية. يطلب من كل طالب يدخل قاعة المراحيض أن يشتري مخدرات.

" خذها! إنها لذيذة!"

" لا أريد !"

" لماذا لاتريد يا أخو ال..؟"

يخاف الطالب البريء .

"ليس عندي نقود!"

"طيب. خذها مجاناً هذه المرّة! "

"لا أريد!"

"لماذا لا تريد يا حبيبي؟" ويظهر سكيناً (موس كبَّاس)، ليخيفه، ثمَّ يخفيه.

" لا أحبها. أمي قالت لي: احذر المخدرات."

"هل أمك حلوة ولا؟"

يهرب الولد ثمَّ يبول في بنطاله! ينكسر خاطره! يجمع المكسور منه، ويضعه داخل حقيبته، ويحمل كتبه، ويهرب من المدرسة !

كل الطلاب هربوا من المدرسة، فأمر مديرها بإغلاق أبواب الصفوف بالمفاتيح، بعد دخول الطلاب إليها. ضحك الطلاب وهربوا من الشبابيك . فأمر المدير بوضع شبك دجاج مقوى على الشبابيك، كي لا يهرب منها التلاميذ!

خزقوا الشبك وخرجوا منه، فقال لهم :"ضعوا شبك حديد (بقلاوة)."

تضخم الطلاب، وتحولوا إلى ديناصورات! ودفعوا الشبابيك قطعة واحدة! خلعوها من الجدران، وخلعوا الأبواب وخرجوا!

حمد المدير الله، أن الديناصورات لم تكبر أكثر من اللازم، لأنها عندئذ، ستدمر جدران وسقف المدرسة.

قال رجال المباحث : "إنّ سبب هذا البلاء، هو الراقصة مهلبية. بحثوا عن عنوان الراقصة وعن أصلها."

"الأصل الأصل." قال المحقق ! فأجاب صاحب الملهى:

"تلك الراقصة مهلبية، جاءت من تأليف وإبداع المؤلف (مشهور شاهر الشهري)." قال المحقق:

" ائتوني به ." ولما أتوا به، قال لـه المحقق :

"دون لـف أو دوران، نريـد منـك إحـضار الراقـصة، التـي أوجـدتها فـي ملهـى الخيال." اندهش المؤلف مشـهور :

"ما الموضوع؟ أنا مؤلف قصة، ولسـت خالقـاً (تبـارك الله أحـسن الخـالقين) أنا تخيلت المرأة، وأبدعتها من نسيج مخيلتي، ورسمتها علـى الـورق، لتكـون في ملهى، فكانت، فتكاثر حولها الرواد، فما علاقتي في الموضـوع؟ أنـا أديـب، مبتكر، مبدع ! هـل ممنـوع عنـدكم التـأليف الأدبـي؟ ألـم يقـل (مايكـل أنجلـو) لتمثاله موسى : (والآن تكلم!) لم يبق على تمثال مايكل أنجلو سوى النطق، ولكن حظي الرائع، أنَّ راقصتي مهلبية نطقت، ورقصت، وأعجبت الجمهور، فمـا هي المشـكلة ؟"

هز المحقق عصاه فوق الطاولة قائلاً :

" المشـكلة أنَّ راقصتك مهلبية قد هربت مـن الملهـى، وأدارت بيتـاً للـدعارة وتسـويق المخدرات يا مبدع، وهـذا أسـقط عـدداً كبيـراً مـن الرجـال فـي مـرض الإيدز، وأسقط كثيراً من النساء في الدعارة، وأسقط الكثير من الصغار والكبـار، في مصيبة المخـدرات! المجتمـع فـسد ياحـضرة المؤلـف! وتقـول لـي مـا هـي المشـكلة؟ هذه ليسـت مشـكلة، إنها مصيبة !"

"أنـتم سـمحتم بتـرخيص الملاهـي، ونحـن نعمـل ضـمن الأنظمـة والقـوانين المرعية."

" نحن سمحنا بالرقص، ولم نسمح بالدعارة والمخدرات!"

" أنا رسـمت لتلـك الراقـصة مهلبيـة حـدوداً، مطلـوب منهـا أن تبقـى تـرقص داخل الملهى، ولكنهـا تـسربت وخرجـت منـه، وهـذا خـروج علـى الـنص، وأنـا مندهش! فالمخرج يخرج علـى الـنص، والممثـل يخـرج علـى الـنص، والراقـصة خرجت على النص المكتوب لـها، وأنا لايعجبني ذلك، أنا أريد أن تكون راقـصتي منضبطة بالحدود التي رسمتها لـها، ولقـد جـاء صـاحب الملهـى وشـكى لـي عليها، وبحثت عنها، فلم أجـدها. وهـذا خـروج خطيـر علـى الـنص! أنـا منـزعج وخائف! وبصراحة ياحضرة المحقق، أنا لا أتحمل مسؤولية حرية هـذه الراقـصة. هذه قضايا أمنيـة أنـتم أولـى بهـا، وتقـع ضـمن مـسئولياتكم ! أنـتم مـسئولون عنها، فالأمن والحماية مـسئوليتكم. وأنـا بـصراحة، أتيـت لأقـدم شـكوى بحـق الراقصة مهلبية، التي تمردت عليّ، وخرجت من الملهى. فمهما كـان ياحـضرة المحقق. فالظفر لا يطلع مـن اللحـم. وهـذه بنـت الكلـب، خرجـت مـن لحمـي واختفت! فأنا ولي أمرها! ولـي حقـوق، وعليهـا واجبـات! أرجـوك أن تحـرر لـي بحقها شكوى تمرد."

اقتنع المحقق بما ورد، فأمر مساعده، فأخذ يكتب بحقها شكوى تمرد.

بعثة تقصي الحقائق
في قصة جزاء سنمار .

"المستبد يقتلع كل الفاضلين من جذورهم. "
سوفوكليس "أوديب ملكاً " 431 ق.م.

تجولت البعثة الدولية للآثار، وتقصي الحقائق، حول وداخل قصر المهراجا بدر الزمان، الذي قتل مهندس قصره سنمار ، بعد أن بنى له المهندس قصراً عجيباً، لم يشيد مثله في البلاد. وكان أفراد البعثة مندهشين أثناء تجوالهم لاستكشاف آثاره، والتحقيق في قضية القصر، الذي اشتهر بمقولة (جزاء سنمار) لأن ذلك المهندس قال للمهراجا :

" إن في هذا القصر سراً، يتمثل في حجر واحد من أحجار البناء، غير معروف إلا للمهندس سنمار، لو سحبه، لانهار القصر بكامله."

وكي لا يعيش المهراجا على أعصابه، تحت رحمة المهندس سنمار، الذي كان يستطيع في أية لحظة لو شاء، أن يهدم القصر بكامله، قام المهراجا باستدعاء المهندس، لاستشارات هندسية فوق سطح القصر، ومن هناك، دفعه فأوقعه، فمات المهندس، وتخلص المهراجا من همومه. فقال الناس :

" هذا جزاء سنمار"

ولدى مراجعة القصة، التي كان قد صدّقها كل الناس، فإن علماء الحفريات والآثار، واللجان المنبثقة عنهم، لم تصدق الرواية، واعتبرتها مشكوكاً فيها، على ضوء المعطيات، والمعلومات الواردة، والتحقيقات الجنائية، والحفريات الأثرية، والمراجع التاريخية، وعالم المال والأعمال الحديث، والرواة الذين كُلِّفوا بإعادة دراسة تلك الفاجعة، وتبيُّن أسبابها وأهدافها، بل اختلفوا في تحليل الحدث ؛ فقال أحدهم :

" إن تحليلاتي أوضحت له، أن المهندس سنمار، كان يحب زوجة المهراجا ؛ السيدة مليحة، وأنه كثيراً ما كان يلتقي بها، ويتابع معها أعمال المعمار، وشكل الشبابيك والأبواب، والعزل الحراري، والتدفئة تحت البلاط، ومدى انسجام القصر مع الأصالة والمعاصرة، ومدى تأثير الشكل الخارجي، على مضمون القاعات، والغرف الداخلية، وأن الزوجة قد وقعت في غرامه ..

وأحس المهراجا بخيانة زوجته، وخيانة مهندسه، فقرر أن يقتل المهندس، للتخلص من مصدر تلك الخيانة المريرة، وأنه لم يكن في الحقيقة سر في القصر، يتمثل في حجر، لو سحب لانهار القصر كله، ذلك لأن القصر بقي حتى يومنا هذا، بكامل مواصفاته، ولم ينهر، ولم يجر له أي بلاء! وكي يتخلص من المهندس، استدعاه لاستشارة هندسية، وصعد معه إلى سطح القصر، المطل على الدنيا كلها، وفي لحظة متابعة من المهندس سنمار، انحنى على صوان السطح، فقذف به المهراجا من هناك، ليقع في واد سحيق تحت

القصر، فاستقبلته الوحوش الضارية، فأكلت لحمه، وقرقشت ما تبقى من عظامه، واختفى أثره!"

وخالف باحث أخر من البعثة الدولية، كل تلك التراهات إذ قال:

" إن قذف المحصنات الغافلات أمر مرفوض، وإن ذلك يحتاج إلى أربعة شهود عدول، فمن أين تأتي اليوم بشاهد عادل واحد؟" وأضاف الباحث قائلاً :

" كان المهندس سنماريلتقي بالسيدة مليحة في قاعات القصر، والتي كلها إسمنت وحديد، في مواقع العمل، فتتشاور معه في أعمال المعمار، والشكل والمضمون، وإن السيدة مليحة على عكس ما قيل، كانت تبتز كل معلومة تحقق لها السعادة البيتية، غير مهتمة بالغراميات مع ذلك المهندس المغموس بالغبار والإسمنت، والذي لم يكن اهتمامه وانشغاله بمعماره، يعطيه الفرصة للاهتمام بأناقة هندامه."

وأما المحقق السياسي في اللجنة، فلقد صرح قائلاً :

" تحرياتنا تؤكد أن لا علاقة للتدخل الإمبريالي في قضية المهندس سنمار، وأن لا علاقة للمخابرات البريطانية، أو السي آي إيه، أو الكي جي بي، بالمهندس سنمار، الذي حقق التقنية المعمارية المميزة في بلد عربي مسلم، من دول العالم الثالث، تضاهي التقنية المعمارية الغربية، وأن سنمار لم يمت مقتولاً بيد أدوات الصراع التقني الدولي، كما ادّعت بعض وكالات الأنباء، ضعيفة الحجج."

وفي النهاية تقدم محلل اقتصاي كبير، عضو في لجنة تقصي الحقائق، معروف بنظرته المادية غير الديالكتيكية للأشياء، ومشهور بمقولته : عند البحث أي مشكلة (عالقرش دور) فقال :

"إن كل الأبحاث والدلائل، تشير إلى أن المهندس سنمار مات مقتولاً بيد المهراجا بدر الزمان، لأسباب مادية بحتة! فالأوراق المكتشفة تحت بلاط الممر الجنوبي للقصر، أوضحت مراسلات شديدة اللهجة، يطلب المهندس فيها من المالك، تسديد أجور عمله، وكان المهراجا يتباطأ في الرد على المهندس، والمهندس يطالب، والمهراجا يتضايق من شدة مطالبته، واشتد النزاع بينهما، لدرجة فقد فيها المهندس أعصابه، عندما اكتشف أنه لن يحصل على أجره المتبقى، بعد أن أنهى مراقبة وإدارة كل تشطيبات المعمار، فقال للمهراجا :

- أنت تحترف التمثيل والمراوغة! وإنني لن أسمح لك بالنصب والاحتيال! وارتفع صوت المهندس فوق سطح العمارة، مما أشعر المهراجا بالحرج المخجل، أمام مهندس مأجور، وعلى العكس، كان المهندس يشعر أن المهراجا يشبه كيس تبن مملوء ذهباً، أو كما يقول المثل المصري (بدل على اشولة) وأنه لا يفهم شيئاً، ولكن مركز قوته ينبع من امتلاكه للنقود، التي يسخّر بها عقول البشر، لتحقيق رغباته، وفي النهاية، لا يريد أن يدفع، وإنه لا يخجل من النصب والاحتيال، للوصول إلى توفير واكتناز النقود، وهكذا يتم الغنى! وإن المهراجا الغني أبخل بكثير مما كان يتوقع، عندما قابله لأول مرة، حيث كان ؛ بديع اللسان، أنيق الهندام، ولكنه اكتشف فيه عيوباً بشعة، فهو يقبض ويكنز الذهب والفضة، ويجمع قرشاً فوق قرش، ويجمع ولا يطرح، وهكذا تجمع لديه مال كثير، وأصبح غنياً، وكان المهندس سنمار، يريد حقه من النقود، فالتجأ إلى القضاء، وأكدت وثائق دار القضاء، أن المهندس كان قد اشتكى على المهراجا بدر الزمان، فجاء الرد من القضاء، بأن مكان إقامة المهراجا المذكور، غير معروف ! وان الشكوى سجلت ضد مجهول، وسقطت قانونيتها. ذلك لأن المهراجا كان يشتري القضاة، وصانعي القرار، حيثما كان

لـه مصلحة، ولذلك فهو الخصم والحكم، وهو الذي أوعز للقاضي بالإعلان، بـأن مكان إقامته غير معروف، وأن القضية سجلت ضد مجهول ."

وتابع المحلل الاقتصادي شهادته في القضية قائلاً :

"شعر المهندس أن حقوقه القانونية قد ضاعت، فواجه المهراجا وهما على سطح القصر، بردود وعبارات قاسية، وقال لـه:

- سأقدم دمي فداء حقي!

فشعر المهراجا بالضياع المعنوي أمام المهندس، وهدده بأنـه سـيقذف بـه من فوق سطح عمارته، وعندها هجم حارس المهراجا، وأسـرع بقـذف سـنمار من فوق سطح العمارة، شاهقة الارتفاع، تنفيـذاً لرغبـة ولـي نعمتـه، وانتهـى الصراع على تلك الصورة ."

حك المحلل الشعرتين الباقيتين على صلعته، ثم تابع وجهة نظره قائلاً:

" بـالطبع لـم يكـن يومهـا طبيـب يحقـق فـي طريقـة المـوت، ولـم تكـن هنـاك جمعيات تطالب بحقوق الإنسان، وذكرت القصة كخرافـة، أو كطرفـة مـن طـرف ذلك الزمان، وتم افتتاح القصر الجميل، وقدمت سلات الزهـور علـى بابـه، وتـم إطلاق حمام أبيض كثير، كان محصوراً فـي أقفـاص، خصـصت لتلـك المناسـبة، كدليل على السلام والمحبة والبراءة، ودخلت نساء جميلات، ورجال أشـاوس، للمباركـة بالافتتـاح العظـيم، وانطلقـت موسـيقات الفـالس والتـانغو والـسلو والتويست، على أنغام موسـيقى وأغـاني الـروك انـد رول، وموسـيقى القـرب الأسـكتلندية، مـع الطبـل والمزمـار العـربيين، وأغـاني سـميرة توفيـق، وليلـى نظمي، ووليد توفيق، وشكوكو، وآخرين. وعاش المهراجا بدرالزمان، مع زوجتـه مليحة، في ثبات ونبات، وخلفا صبية وبنات، ملئوا القصر نـوراً وبهجـة لوالـديهم الغنيين، ونال المهندس سنمار جزاءه!"

دهش الجميع، وقرروا إعادة كتابة التاريخ!

الصوملة

"الطبيب يبتر العضو الفاسد، والطاغية يبتر الصالحين."
سوفوكليس " أوديب ملكاً " 431ق.م.

احتفلنا بالعيد المئوي لميلاد القائد العملاق، الملهم زياد مري. وأضأنا الشموع، وقام الفنانون منا بنصب تمثال للرئيس المناضل، الاشتراكي الرأسمالي الديمقراطي الشعبي الأوحد العربي الكبير زياد مري، تمثال أكبر من هرم خوفو! لا تخاف من كلمة خوفو ! صحيح إن القائد الزعيم كان مخيفاً! ولكنه الخوف لأعدائه، أعداء الشعب !

جمعنا التبرعات مثل كل مرة، من أصحاب الحوانيت والبائعين والمتجولين، وأخذنا نسبة من فواتير الماء، والكهرباء والهاتف، وأرسلنا أطفال المدارس، ومعهم علباً مختومة، للوقوف على إشارات المرور، لجمع التبرعات من أصحاب، أو سائقي السيارات. صحيح إن بعض الأطفال قد داستهم سيارات، وبعضهم توفي- رحمهم الله- ولكن بعضهم الآخر كان أزعر، يتلاعب بتحصيل النقود، فيمد العلبة المختومة للتبرعات باتجاه السائق، وعندما يدفع السائق نقوداً، يمد الطفل يده، فتستقبل النقود، وليس العلبة المختومة، وتتحرك السيارة بصاحبها، بينما يضع الطفل الأزعر، النقود التي قبضها في جيبه، وليس في الحصالة !

وأما هذا الخروج على النص، وهذه الخيانة العظمى للأمانة، فلقد كنا صارمين، باتخاذ أشد الإجراءات، بحق أولئك الأطفال، الخارجين على القانون.كنا نرسلهم إلى معتقلات الإصلاح. وهكذا انتشر الإصلاح والتصليح في الدولة المستصلحة، وكان الأطفال يسجنون مع المجرمين والقتلة، بهدف إرهابهم، ومنعهم من التطاول على مال الشعب، وكان الأطفال يخرجون من تلك السجون مدربين على ما أراد لهم السجناء الكبار في نفس الإسطبل أن يفعلوا ميدانياً، فكانوا يشكروننا على أننا نرسل لهم تلاميذاً صغاراً، يدربونهم على ما يريدون، ويعتبرونهم أشبال المستقبل، في تنفيذ رغبات مجرمي السجون. ذلك ما اكتشفته لجنة مكافحة الفساد لاحقاً .. ونادراً ما كنا نعتقل صاحب دكانٍ- لا سمح الله- لأنه لم يكن يدفع المعلوم، لأنه بشكل وبآخر، كان بصراحة ، يدفع المعلوم، فلا يضطرنا لأن نكون أشداء، غلاظ القلب معه،(ولو كنت فظاً غليظ ال..) فحتى لو باع البائع المتجول منهم عربته، ونقدنا ثمنها، فإنه لن يتردد بالدفع، ولو لم يملك، فإنه مستعد أن يتبرع بالروح وبالدم، لفداء القائد الرائد المقاتل المناضل الزعيم، زياد مري، ولهذا كنت تجد الجماهير في الشوارع تهتف:"بالروح بالدم نفديك يامري." وكان مري هرم عملاق، يجلس متربعاً على وطنه، يلوح للجماهير بكلتا يديه اليمنى واليسرى، ذلك لأنه كان من أهل يمين اليسار، ودائماً يقول:

"اللهم اجعلنا من أهل اليمين." ولاشك أن جذوره الفكرية، وانتمائه للتحالف الديمقراطي الاشتراكي التقدمي الوحدوي العروبي الشعبي، كان يؤكد أنه يساري بطبعه. وحتى لا يحسب على أهل اليمين أو اليسار، اضطر أن يلوح بكلتا يديه، ومن أجل ذلك، ركبنا له تحت كوعي ذراعيه، محركان ليحركا كلتا يديه، دون أن يبذل هو شخصياً أي جهد في الحركة، وكان مري يحي الجماهير، بينما هو متربع على الوطن، وكان يحب الوطن، ويحب الهدية،

فالشركات الأجنبية والمحلية، لا تنفذ مشروعاً، إلا ويحلف مديروها بأغلظ الإيمان، وبالطلاق، إلا أن يكون الرئيس شريكاً لهم في أعمالهم وتجارتهم، لتكون بضاعتهم مباركة! ولتحصل البركة على تجارتهم، فقط ليس إلا! وبالطبع ما دام هؤلاء التجار والأغنياء، يطلبون بركة الزعيم، فلقد كان الزعيم يمنحهم بركته بلا حدود، ومن أجله كنا نحميهم ونسير تجارتهم، ونبعد عنهم أولاد الحرام، والسارقين والمارقين والكاذبين والأفّاقين والمدّعين وال..

وفي الحقيقة دعونا نكون صرحاء معكم، فالجماعة لم يكونوا يقصرون معنا! كانوا يدفعوا لنا بسخاء، مقابل إبعاد الروتين، والتعقيدات، والمنافسات، عن مشاريعهم وأعمالهم، وكنا نتساهل في قبول أعمالهم، حتى لو كانت مواصفاتها منقوصة، فالناس للناس! والواحد يقول :" يسر ولاتعسر!"

هكذا كانت حياتنا تسير بيسر، ونادراً ما أرسلنا أحدهم إلى السجن بسبب رفض إطاعة الأوامر، أو عدم دفع المعلوم، ذلك لأنه لو دخل السجن، فالداخل مفقود، والخارج مولود! وكنا نسأل مدراء السجون :

" لماذا لا يخرج من عندكم أحد؟" فيقولون :" إنهم لا يحبون التعذيب، ذلك لأن المعذّب والمعذِّب، يتشبع كل منهم بالعذاب، وحيث أنه لاداعي لتعذيب السجانين، فكان القتل ينهي مقارعة هؤلاء السجناء ، ويريح إدارة السجن من طعامهم وشرابهم و..." ولهذا عندما كانت بعثات حقوق الإنسان تزور سجوننا، في بلاد الصوملة كلها، كانت لاتجد سجناء سياسيين، فالسجون نظيفة، خفيفة مهضومة، والأمن مستتب..

استمر الوضع هكذا لمدة مائة عام.. والزعيم متربع فوق الوطن، ولم نعرف أنه قد مات، إلا بعد أن بدأ الدود يخرج من تحت فخذيه وشرجه، ولحم قاعدته المتربع عليها.. كان الدود يخرج بالآلاف! ويتحول إلى ميشليات! كلهم متشابهون في الطول والشكل! وتنفيذ الأوامر، وسماع الكلام! كانوا كلهم مستنسخين من نسخة واحدة. تماماً مثل النعجة دوللي، التي جاءت بالاستنساخ.. كان الدود يستنسخ عن الزعيم زياد مري، فما أن تضرب أشعة الشمس دودة، حتى تتحول إلى مقاتل، يحمل بندقية، يحمي بها سيادة الزعيم، وعندما طلعت رائحة الزعيم! اضطررنا تحت ضغط الرائحة القاتلة أن ندفنه. ولكن بعد وفاته، اشتعلت البنادق، تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله !

وهكذا ضاعت الطاسة! ووقعت الفأس في الرأس! ولم يبق على الأرض وزارة، ولابريد، ولا محطة بنزين، ولا مصرف، ولا متجر، ولا مكان آمن، إلا وتم غزوه وتدميره من قبل مشيليات الدود، الخارج من تحت فخذي الزعيم، وهكذا وقعت البلاد في ظلام دامس! استمر قرناً آخر من حرب داحس والغبراء، المتصلة بحرب البسوس، المستمرة منذ حروب الفتنة الكبرى، وحتى ساعة إعداد هذه النشرة، حتى أكلت تلك الحرب الأخضر واليابس! لكننا ورغم كل ما حصل، لا نعترف بأن العيب كان عيب الزعيم مري، فهذه الصوملة ليست من صنعه، بل على العكس، فإن سيادة الزعيم، سيعود للحكم من جديد، ونحن بانتظاره. (نحن بانتظار جودو، الذي يأتي ولا يأتي !)

وطائفتنا تعتقد اعتقاداً جازماً، بأنه سيقوم، وسيعود ليحكم البلاد من جديد، فالروح تستنسخ، وإذا كانت النعجة (دوللي) التي هي نعجة! قد استنسخت، وأعادت للحياة مثلها من جديد، فلماذا لا يعود سيادة الزعيم مستنسخاً، ليحكمنا من جديد؟ ولهذا قررنا العودة، بعد مائة عام من مولده، لنحتفل بالعيد المئوي لميلاد القائد، ونبني له صرحاً هرمياً، يفوق ضخامة

هرم خوفو! لنخيف به أعداءه، الذين يملؤون الشارع العربي. والذين يعتقدون أن الدنيا قد تغيرت، وأن زمان مري قد ولّى، وأن قرن الواحد والعشرين، هو قرن الحرية! وأن شمس الحرية، ستشرق من جديد!
جريدة الدستور 2003

أبو خليل !

منذ نعومة أظفاره، وهم ينادونه بكنيته(أبو خليل). لم نعرف نحن اسمه الحقيقي، ولا حتى في المناسبات. كانوا ينادونه هكذا :

" تعال يا أبو خليل." "روح يا أبو خليل." "ولك يا أبو خليل!" فيرد قائلاً: " نعم!"

لم يكن يفكر لـلحظة واحدة بـاسمه المدون في شهادة الميلاد، وحتى في المدرسة، عندما كان يسأله المعلم:" ما اسمك؟" كان يجيب:

" أبو خليل." فيغضب المعلم، ويعود ليسأله، صارخاً في وجهه:

" ولك إسمك! إسمك؟" فيرد :" أبو خليل."

كان ولدهما الأول، وكانا يتفاءلان بأن يشاهداه يكبر، ويتزوج وينجب لهما حفيداً، على اسم أبيه خليل ولذلك سمّوه (أبو خليل).

لم يكن أحد في الحارة يعرفه إلا بكنيته هذه .

وكبر أبو خليل، وتخرج من المدرسة، واشتغل بالتجارة ، وتزوج مبكراً، وبقي من أول ليلة ، لايحلم بليلة العرس، بقدر ماكان يحلم بأن تحمل زوجه، وتنجب له ولداً، ليسميه خليل. وكان كثيراً ما يحدّث نفسه قائلاً : منذ عشرين سنة وهم ينادونني: أبو خليل، أبو خليل! والآن، أم خليل حامل، وأنا أتوقع أن ياتيني منها ولد... الآن أنت ياخليل قادم لامحالة ، بعد طول انتظار .الانتظار صعب ،وأم كلثوم تقول: (وأنام وأصحى على ابتسامتك) وأنا أنام وأصحو على إبتسامتك ياخليل... أتخيلك في المنام تلعب... وتركض في الغابة على عشب أخضر وتحت أشجار وارفة الظلال، وأنا أركض خلفك... تلعب الكرة فألعب معك ...صار اسمي في السوق أشهر من نار على علم ... وضعت اسم المحل التجاري على كل الواجهة (**أبو خليل**) ثم بخط صغير، أتبعتها بكلمة (ماركت) فصار(**أبو خليل** ماركت).

والناس..! أتحداك إذا كان أحدهم في الحارة، أو في أي مكان، يعرفني إلا بإسم أبو خليل ...حتى نفسي يارجل، أنا نفسي نسيت اسمي الأصلي ...فأنا لا أذكر أنهم نادوني إلا بإسم أبو خليل... ولو عملت مسابقة حزازير، أو فوازير رمضان في التلفاز، أو فكّ واربح، أو من سيربح المليون؟ أو وزنك ذهب، أو وزنك ضراط ! وسألت كل الناس في المسابقة، عن اسمي الأصلي المكتوب في شهادة الميلاد، لقالوا لك "إن اسمه (أبو خليل)."

وعندما ذهبت أم خليل إلى مستشفى الولادة، لم يستطع أبو خليل البقاء معها في لحظات الترقب والانتظار والتألم ، ذلك لأنه لايطيق مشاهدة ألم المخاض والولادة، ولهذا أرسلها إلى أفضل مستشفى ولادة، فالمصاريف لاتهمه.المهم صحة المولود. وكان الطبيب قد أبلغه، قبل عدة أشهر من الولادة، بأنه ينتظر مولوداً ذكراً. وعلى الفور، ضرب أبو خليل كفه بكف الطبيب، وقال له:" سنسميه خليل!" فقال الطبيب :

" خليل ، خليل! على بركة الله. مبروك يا أبو خليل."

والآن المحترم أبو خليل على باب المستشفى. دخل، فسأل الاستعلامات :" أين أجد المولود خليل ؟" فقالت له الموظفة:

" أكيد في غرفة الخداج." فذهب فوراً إلى غرفة الخداج، وهناك سأل الممرضة عن المولود خليل، فقالت له :" لقد أخرجوه من هنا. إسأل عنه في غرفة الأطفال الحلوين." فقال أبو خليل :

" ماشاء الله ! ماشاء الله ! والله صنّفوك ياخليل مع الأطفال الحلوين! طبعاً سيكون مع الحلوين، فأبوه وأمه حلوين، فلماذا لاتكون يا خليل حلواً، مثل العسل ياعسل ! أصلا إذا لم يكن الولد حلواً وهو صغير، فمتى سيكون؟ وعندما يكبر، ستتراكم عليه الأعباء والمسؤوليات، ولن يهتم لجماله أو بشاعته أحد . طبعاً حلو ياخليل، يا ابن ابو خليل!" وفتش أبو الخل القاعة ذهابا وإيابا، ليشاهد اسم خليل على الأسرّة المزروعة بالأطفال المولودين حديثاً، فلم يعثر عليه، فسأل الممرضة :" أين خليل يا آنسة؟ لايوجد أحد هنا بهذا الاسم!" فأجابت وهي تطرقع اللبان:

" إذن عليك بالقائمة الثانية، حيث الأطفال العاديين." فقال أبو خليل :

" اطفال عاديون، عاديون! فهو بالطبع سيكون طفلا عادياً، وإلا ماذا سيكون؟" وضحك أبو خليل:

"هه هه. والله وصنفوك يا أبو الخل مع الأطفال العاديين ! ياعمي نحن لم نسألكم عن كونه من الأطفال الحلويين أم العاديين. أصلاً لو سألوني عن ابني؛ هل تريده حلواً، أم طفلاً عادياً؟ فسوف أقول له:

ـ لا أريده أن يكون حلواً، لأنه عندها، سيكون مائعاً وسمجاً ومدللاً، ولن يكون تاجراً مراً في السوق! طبعاً لا أريده أن يكون ولداً حلواً، أريده أن يكون عادياً ."

ذهب إلى غرفة الأطفال العاديين، وفتش هنا وهناك، وذهب وعاد عدة مرات، فلم يشاهد اسماً للطفل خليل، فسأل الممرضة :

" أين هو خليل؟ لايوجد هنا طفل بهذا الاسم !" فقالت الممرضة التي تدهن شفاهها بالأحمر: "إذن قد يكون في قاعة الأطفال البشعين .اذهب واسأل عنه هناك. فقال أبو خليل :" خليل بشع؟ هذه مشكلة كبرى! انتظرناك ياخليل عشرين سنة، وتزوجنا مبكرين للحصول عليك، وشطبنا اسمنا من الحياة، لنضع اسمك مكانه، فصرنا أبو خليل! والناس من يومها ينتظرون أن يشاهدوا هذا الخليل ، وأنا أفتخر بأنني أبو خليل، والناس يهابونني وهم ينادونني بهذا الاسم، ولو تجرأ أحدهم وناداني باسمي الشخصي، دون أبو.. ، لجحظته بعيني، وجعلته يراجع الطعام الذي في بطنه، ويخرج من فمه فوراً اسم أبو خليل.. والآن أنت تأتيني على شكل بشع يا ولدي! لكن ماذا أفعل؟ لاحول ولا قوة إلا بالله! ولا اعتراض على عطاء الله! بشع، بشع، هذا لايهم! أصلا الولد يجب أن يكون بشعاً حتى يحسب الناس له ألف حساب (ويخليهم يشوفوا العين الحمراء) فالناس لاتهاب إلا الرجل الذي مثل الجاحظ. كان الجاحظ بشعاً، فصار مهماً، وغداً سيكون خليل مهماً، ولا تنسى أن هناك علم اسمه علم التجميل، فإذا كان هناك مشكلة لخليل،لا سمح الله، فسوف نعمل له عملية تجميل، تجعله مثل الغزال! ولا يهمك ياولدي، ولا تزعل لأنك بشع، فسوف نحلُّ المشكلة، فأنا أبو خليل، وأنت عنوان حياتي، وأنا أعيش من أجلك، ومن أجل أن ينادينني الناس باسمك، وليس باسمي، وأنت الجاه والعز والمستقبل، وأنا أعمل لك فقط، كمؤسسة الضمان الاجتماعي. لأنهم هنا لا يضمنون أحداً، وحتى لو مات

أحدهم، فيقولون: (قضاء وقدر)، ولا يحققون في الموضوع ! يفهمون القضاء والقدر بالمقلوب! ولذلك من أول يوم في حياتي، لم أعش لنفسي، بقدر ما عشت لك.

تصور أن الأب يعمل ويكافح في السوق، ويجمع النقود من هنا وهناك، ويحاسب على الفلس، ولا يسمح لأحد أن يأخذ منه قرشاً واحداً زيادة، ولكنه أمام أولاده، يقف بصورة مغايرة تماماً، ويدفع لهم بلا محاسبة، وفي النهاية وعندما يموت، يدفع لهم كل ممتلكاته، وهو راض ومرتاح، بينما لايدفع لأخيه - ابن أمه وأبيه- شيئا! ترى ما هو سرُّ الانتماء للأبناء، وليس لأي أحد، حتى لو كان أخا، أو..؟ لماذا نبني كل مستقبلنا على جاه الأولاد؟ لماذا نشطب أسماءنا، ونضع مكانها اسم الابن، فيظهر اسم أبو خليل، وكأن لا أحد هنا غير خليل ؟

أعتقد أن السبب هو افتراض أن اسم الأب معروف للناس فعلا، وهو يريد أن يؤسس قيمة مهمة للابن، لكي يعرفه الناس، ويحسبوا له ألف حساب! إنه نوع من إعطاء القيمة للابن، ليدخل السوق في المستقبل بقوة . إننا بهذه المعرفة، نضع أول قدم للابن على الطريق، سواء الطريق الاجتماعي، أو السياسي، أو الاقتصادي . كل حسب توجهه . فأنا أضع قدمك الأولى يا خليل على طريق التجارة من أول يوم، لتكون تاجراً معروفاً في المستقبل! ولاتزعل ياخليل، فأبو خليل معك."

فتش الرجل هنا وهناك، فلم يجد خليل هذا، فصاح بالممرضة بنوع من الهياج هذه المرّة: " أين هو خليل؟ أخبريني!" فأجابته الممرضة وهي تمضغ اللبان بهدوء:

" اذا لم يكن هنا، فبإمكانك البحث عنه في قاعة الأطفال المعاقين." فقال أبو خليل :" يا إلهي ! أطفال معاقين؟ ماذا فعلت تحتك يا ربي ، كي تعطيني باكورة أولادي ؛ طفلاً معوقا؟ وما هي الإعاقة التي لديك ياخليل؟ إعاقة حركية؟ أم سمعية؟ أم بصرية؟ مصيبة إذا كانت إعاقة بصرية، فهي أصعب الإعاقات! وإذا كان الطفل منغولياً أو لديه إعاقة عقلية، فتلك مصيبة لاحل لها! ولكن الولد ولد سواء كان معاقاً، أو ذكياً.إنهم الأذكياء أيضا مسؤولية! ومتابعتهم مسؤولية! ويبقون مسؤولية آبائهم، حتى موت الآباء والأمهات! هذا قضاء الله! ولا رادّ لقضاء الله! الله يستر ياخليل يا ابني! الله يصبّرني على المصيبة التي أنا فيها !

وبعد بحث مرير بين الأطفال المعاقين، لم يجد أحداً تحت اسم خليل، فارتاح قليلاً وقال :

" الحمد لله أنه ليس هنا. قد يكون هناك خطأ ما، أو أنني لم أدقق في القاعات الأولى التى زرتها."

وسأل الممرضة وهو يشعر بإرهاق شديد، وقدرة على التحمُّل :

" أرجوك يا آنسة، قولي لي أين ابني خليل؟" فقالت الممرضة :

" إذا لم يكن موجوداً هنا، فاذهب إلى القاعة الأخيرة، فلقد فتحوا قاعة جديدة في الطابق الأخير." فانطلق راكضا على الدرج، ولم ينتظر المصعد، وعند قمة الدرج، شاهد قاعة كبيرة، مكتوب على بابها بالقلم العريض اسم كبير (حالة خليل) ، فوقف وتهاوى أمام سرير خليل، الذي كان يقبع فوقه بيت زجاجي ضبابي كبير، تهاوى أبو خليل، إذ لم ير معالم واضحة لولده خليل، التي يبدو أنها لاتمت بصلة للناس الآخرين..

كان خليل يختلف عن كل الأطفال الآخرين.

كان خليل نسيج نفسه .

جريدة الدستور 2003

ابن عائلة!

بعد أن انتهى صخب وفوضى حفل عيد ميلاد بهيج للطفل حبّوب، جلس أبو حبّوب وأم حبّوب يتأملان طفلهما، وهما سعيدان ببلوغه السنة الثانية من العمر.."انظري ياسهام ! انظري إليه ؛ عندما يبتسم، تظهر غمازة خدّه الأيسر، تماما كغمازة خد عمي أبو الوفاء . والله كبرت يا حبوب، وصار عمرك سنتين !" فاستبشرت أم حبّوب خيراً وقالت:" إن شاء الله، عيد ميلاد سعيد يا حبيبي! انظر يا أبو حبّوب، صار حبّوب ولداً حبوباً فعلا! يأتي ويروح في البيت وفي الحديقة!" فأضاف أبوه :" أتعرفين يا سهام أن هدية عمته دلال كانت مناسبة تماما له ؛ دراجة ممتازة بثلاث عجلات منفوخة... العب يا حبّوب في البيت وفي الحديقة كما تشاء، فأنت ابن العائلة، الذي أصبح يحسب له ألف حساب ! شاهدي ياسهام كيف أن أذناه الكبيرتان، تشبهان أذني جدي موسى رحمه الله! كانت أذنا جدي كبيرتان، كجناحي طائر ديناصوري منقرض، وكان عليهما شعر كثيف، لكن أذني حبّوب ليس عليهما شعر.هه.هه!"

" انظر إلى عينيه يا محمود، ألا تشبهان عيني أمي محاسن؟ عينان زرقاوان كالبحر! الخالق الناطق! الولد مؤصل على أهل أبيه وأمه!"

شعر أبو حبّوب بالفخر والعزة والكبرياء، وهو يدقق في تفاصيل شكل حبّوب، وقال بعجرفة:" ابن العائلة! نحن عائلتنا مميزة بجهامة وطول غير عاديين! انظري، سيكون حبّوب طويلا، فإذا صار طوله خلال سنتين من عمره، ثمانين سنتميتراً، فكيف سيكون في العشرينات من عمره المديد، إن شاء الله؟ مائة وثمانون ...أنا لا أحب أن يكون طوله متران، لأنه سيضطر إلى أن ينحني عند كل باب، وأن ينتبه كي لا يخبط رأسه بحافة الباب العليا. وأن لايقولوا له: (طويل وهبيل) ! أريده أن يكون مئة وثمانين سنتميتراً، إنه طول كاف، ومن جهة أخرى فإن ابن العائلة، لايشذ عن الركب، وليس في عائلتنا رجل طوله متران! انظري إلى أنفه المعقوف، نفس أنف أخي مصطفى، كلنا عائلة حبوب نتحلى بنفس الصفات ؛ الجهامة، الطول، الآذان الكبيرة. بعضهم أذناه صغيرتان، ولكنه يكون قد أخذها بالوراثة من أخواله الأغراب عن العائلة، وأما العائلة، فلها مواصفات خاصة، وأنت تعرفين أبناء عائلتنا من بعيد وهم سائرون في الطريق (على الدم)، فتقولي: هذا من عائلة دار حبّوب، ولذلك سميته على اسم العائلة، وصار اسمه حبّوب الحبوب! إسم جميل، لاحظي الشامة التي على رقبته! أليست على رقبة عمي أبو جميل، شامة مثلها؟ لكن تلك الشامة السوداء واسعة، وهذه نقطة صغيرة، ولكن نفس الملامح! وحتى طباعه مثل طباع العائلة، لاحظي أنه إذا غضب، يحمرّ وجهه، تماما كما كان وجه أبي يحمر، ويرتفع ضغطه، عندما يزعل! هه.. هه! ربنا لايجيب زعل. لكن دمه يتحرك، كأن دمه يحكي ويقول : أنا من دار الحبّوب، ياعمي، الدم لا يصير ماءً! الدماء التي تجري في عروق العائلة. تتحرك، وتحن إلى بعضها البعض. وأنا أشعر كل يوم أن دمي ودم حبوب يتحركان باتجاه بعضهما البعض! الأب والابن. فقالت أم حبّوب مغتاظة:" ولماذا لم تذكر الأم؟ وإلا نحن فقط علينا أن نحبل ونلد، ونربي ونلبي، وفي الآخر تقول : إن هذا ابن الأب.ألست أنا من العائلة يامحمود؟"

" أنت تعرفين ياسهام أن العائلات في مجتمعنا العربي، تنسب إلى الرجل، وليس إلى المرأة، حتى لو كانت المرأة ابنة عم الرجل، فما بالك بالغريبة عن

العائلة؟ هذا هو رأي المجتمع! أنا لم أميز نفسي بمواصفات عشائرية خاصة. العشائرية تقول :إن الولد لعائلة أبيه، وليس لعائلة أمه. ومنذ زواجنا قبل خمس سنوات، وأنا أنتظر أن يكون لي ولد، يحمل صفات وأمجاد وهموم وطموح العائلة .أريد من مهيوب أن يعتز بشخصيات أجداده وأبيه وأعمامه. انظري إلى شفتيه، اليستا مكتنزتين كشفتي عمي أبو خضر؟ فتضايقت سهام وفردت شفتيها قائلة:" لماذا لاتقول : إنهما جميلتان كشفتي أمه؟ لم تعد تتغزل بشفتي أمه! انتهى عهدهما؟ امتصتهما وتفقتهما، كما تمتص عود قصب السكر، ثم تتفه! ها هو حبوب يعود لك بشفتي أمه المكتنزتين، ستموت عليه البنات عندما يكبر!" فقال الزوج متجاهلاً شفتي سهام:"أعطه الدراجة ليركبها. دعيه يخرج إلى الحديقة. اذهب يا حبّوب يا حبيبي، اركب دراجتك، ولا مانع أن تخرج بها إلى الحديقة." فقال الطفل:"أخرج إلى الحديقة ؟" فقال الأب: "نعم، أخرج، وحاذر أن تقع !" ولاحقته سهام بلهفتها :"الله يحميه !اذهب معه يامحمود .إنه يقود الدراجة لأول مرة!" لم يتحرك الأب وهو يقول:"إنها دراجة، أم ثلاث عجلات يا امرأة ! أين سيقع طفلك؟ داخل الحديقة؟ اخرج، أخرج يا حبوب!" فخرج الطفل راكبا دراجته الجديدة.

وبعد طول حوار بين الأب والأم، انتبها إلى أنه قد مضى وقت طويل، دون أن يعود الطفل إلى والديه ، فخرجت الأم إلى الحديقة، لترعى طفلها، فوجدته قد وقع بدراجته على درج الحديقة، وارتطم رأسه بحافة سلّم الحديد، وأن بركة دم فاضت تحت رأسه! رفعت الطفل برعب، وهي تشاهد دمه المتدفق من رقبته، وكأنه شريان رئيس من شرايينه ! حملته وصرخت بصوت أمٍ تستغيث! هجم زوجها، وحمل الطفل معها، وأسرعا إلى المستشفى الخاص، نفس المستشفى الذي كان حبوب قد ولد فيه، وفي غرفة العمليات، طلب الطبيب دما له، فقال الأب:"الدم عملية سهلة، فأنا وأمه نعطيه دماً !" " ما نوع دمكما ؟"سأل الطبيب. فأجاب الأب:"من حسن الحظ، نوع دمي أنا وأمه من نفس النوع O." وما هي سوى دقائق حتى جاءت نتيجة فحص الدم ، فقال الطبيب:" ولكن دمه من نوع AB، ويجب أن يأخذ من نفس الفصيلة. ولكن تعالا هنا! كيف تقولا لي : إن دم الأب O، ودم الأم O ؟ هذا لايجوز! هل أنت متأكد من نوع دمكما؟" فأجاب الأب مدهوشاً :" هذا مكتوب في الهوية، وفحصناه أكثر من مرة !"

" إذن في الأمر مشكلة! قال الطبيب." فخاف الأب قائلاً :" ماهي المشكلة ." فأجاب الطبيب بكل ثقة: " الطفل ليس ابنكما، لأن دمه يختلف عن دم الأب ودم الأم معاً !" فقال الأب:" هذه مزحة سمجة !" فاعترض الطبيب قائلاً :"أقول لك مايقوله العلم ." فثار الأب قائلاً:" يسقط العلم! ماذا تعني بقولك: إن حبّوب ليس ابني؟" وتدخلت الأم قائلة بفزع :" مهيوب ليس ولدي؟ هذا مستحيل!" فصرخ الطبيب قائلاً:" يا سيدتي، العلم يقول: إنه ليس ولدك." فلعلع لسان سهام قائلاً: " ولكنه ولد في نفس المشفى، وأنتم من ولّده، وسجّله وسلّمنا إياه!" فرد الطبيب:" قد يكون حصل خطأ حين الولادة، أو في غرفة الخداج! دعونا نراجع السجلات متى كان تاريخ ميلاده ! " لقد ولد بتاريخ 16-9-1999" أجابت الأم . فقال الطبيب:" سأراجع سجلاته فورا." ولدى مراجعة الطبيب سجلات المشفى، وأسماء النساء اللواتي ولدن في ذلك اليوم؟ والطفل الذي كان معه في نفس غرفة الخداج؟ وبالاتصال مع الوالدات وذويهن، وبعد تحقيقات قلبت المستشفى رأسا على عقب، تبين أنه تم استبدال الطفل مهيوب، بطفل آخر بالخطأ! ومن الإسم ومعلومات سوار معصم يده، اتّضح أنه قد وُضع بالخطأ على معصم الطفل سفيان الدب! كانت

التحقيقات الجنائية والطبية والوظيفية جارية، بينما تم إسـعاف الطفـل حبّـوب، وتم استبداله بالطفل سفيان الـدب. وبـالرغم مـن اسـتبدال الطفـل بلحـم ودم وروح ومواصفات طفل آخر، إلا أن الطفل الجديد المستبدل، الذي عادا بـه إلـى بيتهما، بقي اسمه حبّوب الحبّوب، على اسم العائلة !

زحمة!

استقبلت شحنه أزهار ونباتات زينه داخليه من هولندا بالطائرة التي حطت يومها في مطار عمان المدني. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ونظرا لكون الأزهار والنباتات الحساسة لا تنتظر كثيرا داخل الصناديق الكرتونية المغلقة، فكان التسليم يتم فوريا، وبعد التسليم يتم إجراء المعاملات الجمركية. لم تكن في ساحة المطار سيارات شحن تقل البضائع في ذلك الوقت القريب من أذان الفجر، فخرجت من منطقة شحن المطار، إلى الشارع الرئيس، عند دوار ماركا، علّني أجد شاحنة مارة بالطريق، فلم أجد..ألقيت نظرة إلى الساحة الفارغة المجاورة للدوار، فشاهدت شاحنة صغيرة واقفة على الأرض الترابية، خارج رصيف الشارع.. اقتربت منها، فشاهدت رجلا ينام مضطجعا على مقعدها العريض، خلف مقود السيارة، طرقت بإصبعي على زجاج السيارة، طرقات خفيفة كي لا أزعجه .. كان الرجل مستغرقاً في نومه، ثم اتبعتها بطرقات أشد، فجفل الرجل قائلاً: " ماذا ؟ أإلى هنا تلاحقني؟ أنا يا أخي خارج الشارع! وبعيد عن الرصيف! اتركني بحالي ! ليس عندكم سوى مخالفات، مخالفات!" فأجبته ضاحكاً :" يا عمي أنا لست شرطياً، أنا مواطن عادي !" فقال مولولاً:" طيب يا مواطن لماذا هذا الإزعاج، قبل أذان الفجر؟" فضحكت وأنا أجيب:" أريدك أن تنقل لي شحنة صغيرة إلى عمان.غرب عمان." فتململ الرجل وتمطى وهو يقول :" يا صبّاح، يا فتّاح، يا رزّاق، يا كريم !"

" قم يا رجل، قم! يا نائم وحِّد الدائم!" فانتبه لما يدور حوله، وقال لي بلهجة المنزعج : "أين هي بضاعتك ؟" فقلت له: " في المطار.".

"ما هي البضاعة التي في المطار؟" يتحدث معي كالمحقق!

فأجبته باسماً "صناديق زهور.". شعرت أن السائق بدأ يصحو ويفهم عليّ. فدرت له من الجهة الثانية وقررت أن أحاوره وجهاً لوجه، ففتحت باب الشاحنة الصغيرة من جهة اليمين، ثم جلست إلى جواره .

"الله يصبحك بالخير." قلت له." صباح النور." تنهد وهو يجيب.

"اطلع، قل يا الله!" لم يعارض، بل قال :"حاضر." ثم شغّل مفتاح محرك الشاحنة فاشتغل. وصلنا إلى مبنى شحن المطار، وحمّلنا الصناديق، وخرجنا من ماركا، باتجاه عمان الغربية، وعلى الطريق سألته:" اسم الكريم؟" فقال:" اسمي أبو نادر." فقلت له مداعباً: "أهلا أبو نادر.".فتجاوب معي قائلاً :"أهلا بك."

"ما حكاية مخالفات ما مخالفات هذه ، خائف من الشرطة؟" طبّلت على كتفه وهو مستمر في القيادة. فأجاب متجهماً :" يا أخي، الشرطة ورطة! ممنوع الوقوف! ممنوع التوقف! ممنوع الوقوف المزدوج! ممنوع ممنوع ممنوع ! طيب! دلوني ما هو المسموح؟" مسح وجهه بالرحمن، ثم تابع قوله:" ليست مشكلتي! يقول لك الشرطي، وهو يكتب مخالفه! ثم يأمرك قائلاً: سددها في دائرة السير. أفتح المذياع فأسمع صوت أم كلثوم تغني : (أنام وأصحى على ابتسامتك..) ، وأنا أنام وأصحو أحلم بالشرطة!" استغربت موضوع هذا السائق فسألته:" لكن لماذا أنت نائم في الأرض الخلاء؟ أليس لك بيت؟" فأجابني أبو نادر ساخراً :" بلى لي بيت، ولكن في البيت تعيش زوجتي!"

الجواب غريب فسألته:" وهل عيشة زوجتك تمنعك من النوم في البيت؟" فقال وهو ينظر إلى الشارع أمامه:

" أنظر يا .. ما اسمك ؟" فقلت باسما:"اسمي مراد التكريمي."

"سمع يا مراد يا تكريمي، يا بني، أنا رجل أعصابي متعبة، طوال اليوم أدور وألِف..أموت حتى أدبر ثمن الديزل الذي أعبئه في هذه السيارة القحبة.. وهذا يحاتفني على القرش، وذاك لا يدفع لي ! وزحمة السوق تخلق المشاكل، وهذا صاحب السيارة يدّعي أن له دوراً قبلك! فإما أن يأخذ منك الشحنة، وتروح عليك، فتقضي يومك بلا شغل، وتعود للمرة ؛ يد من قُدّام، ويد من وراء، أو إنك مضطر لأن تتقاتل معهم، حتى يأتيك دور ! فتحمل وتوصل الشحنة، و إذا وقع منها، أو انكسر شيء، قامت معركة للسماء! وراحت عليك أجرة النقل، وإذا دفع لك، فلا يكاد يدفع ثمن السولار! وإذا دفع لك كما تريد، وعدت إلى بيتك مبسوطاً، فإما أن يضرب معك بنشر، أو يفقع عجل، فتغيره بشغل أسبوع بحاله ! وطوال النهار تصليح تصليح؛ فهذا موتور، وهذا دسبرتور، وهذا سوتش، وهذا سلف، وهذا قرد! والواحد لا يلبس قميصاً نظيفاً طيلة حياته! طوال النهار عتالة! وتقول لي عن الشرطة؟ يلحقك شرطي: هذا عجل ماسح! مخالفة! وهذه السيارة ليس لها خلف العجلات أذنين دلايات! مخالفه! وهذه السيارة تدخن ! مخالفة. طيب قل : الشرطة معها حق ! تريد أن تنظيم السير، حسب رأيهم الذي لا يعجبني طبعاً، لكن المحترمة مرتي ! أصل إلى البيت هالكاً من التعب، وغير قادر على أن أحكي كلمتين، من كثرة ما قاتلت أناساً! وتصايحت مع بهائم! وأعصابي طوال النهار مجرورة على الشارع ! فهذه سيارة تدخل عليك من هنا! وهذه سيارة تقطع الإشارة الحمراء، والطريق لك خضراء! وعلى التقاطع، من الممكن أن تموت بلحظة ، إذا دخل عليك واحد، والإشارة ليست له، وأنت قائل : يا كريم، الإشارة خضراء، فتفاجأ بواحد محترم، دخل عليك من الشارع المتقاطع معك، وإشارته حمراء، وهو غير مبال، حيث لا تقف شرطة عند كل تقاطع ! لا أحد يرى! ومن هناك ينط أمامك ولد، أو سيدة محتشمة يا سيدي!" قالها ساخراً طبعاً . "فتقطع المحتشمة الشارع وهي تضع رأسها في الأرض، وقال المحتشمة تستحي أن تنظر إلى اليمين وإلى الشمال، فتدس رأسها مثل الغنم، وتدخل في الشارع، لا إحم، ولا دستور! تقطع الشارع، مثلما كان الشاطر حسن يقطع الشارع! أنت تعرف أن الشاطر حسن كان اسمه شاطر، لأنه كان يشطر الطريق؟ أي كان يقطع الطريق ! أعني إنه كان من قطاع الطرق، والحرامية الظرفاء! ولذلك سموه الشاطر حسن. ومن يومها صار قطع الطريق شطارة، والشطارة مرغوبة هذه الأيام! وتلاقي صاحبك يقول: ابني شاطر! وخليك شاطر يا ولد! وفي هذه الثقافة التي يعتبر فيها الاعتداء على حقوق الناس وممتلاكاتهم شطارة، تأتي هذه المرأة الشاطرة ، أو هذا الرجل الذي شواربه تكتّف حصاناً، فيقطع لك الشارع من أمامك فجأة! فتضرب مكابح سيارتك، وأنت خائف أن تقتل البني آدم ! وفي نفس الوقت خائف أن يضربك أحدهم من الخلف! مهنة كلها حرق أعصاب، في حرق أعصاب ! أصل إلى البيت يا... ما اسمك قلت لي؟"

فأجبته مطاوعاً، ومتسلياً بحكاياته، إلى أن نصل إلى محل أزهاري في غرب عمان: "مراد ، مراد، اسمي مراد!" فقال وعيناه تنظران إلى الأمام: " مراد، مراد.! أصل للبيت يا مراد، يا ابني، ذائباً من التعب، جائعاً، مضطراً للذهاب إلى المرحاض! وحالتي عدم ! فتلاقيني مرتي بمنخارها الذي طوله شبر، الاحظ أنها تتجاهلني! مالك يا مره ؟" فيجيبني خرطومها قائلاً:" ميلة، تميل حالي! اللعنة على هذه العيشة، وعلى الذين يعيشونها!"

" ماذا حصل؟ ماذا صار؟" فتقول أنيابها: "أختك عايشة التي ليتها ما تعيش إن شاء الله! تنتظر غيابك، ثم تتفرغ لتتمسخر علينا ، وتقول لنا وهي تتمايل متعجرفة : إن مستواكم ليس من مستوانا!.. والله صار لك مستوى يا عايشة يا بنت باكيت! كان أبوها يشتغل طوال النهار، ويروح عند مرته نجية ؛ يد من قدّام، ويد من وراء. فتسأله مرته : ماذا جبت لنا معك يا مهران؟ فيقول لها : والله ما جبت معي غير هذا الباكيت!

باكيت سجائر! هذا هو كل ما كان يجيبه أبوها! واليوم تأتي لتقول لي: - أنتم لستم من مستواي! والله لم أعلم أن عايشة صايرة مرت رئيس وزراء، ولا بنت مانجو! ما دامت ساكنة في وادي الحدادة، مثلنا مثلها!" فأقول لها بكل نفس ذائقة الموت:" يا مرة ما هو الموضوع؟ إحكي لي على ماذا اختلفتن؟"

- قال يا سيدي نحن خرّينا لها الخلاط! اقترضناه منها لنطحن حبتين قهوة، من الحبوب التي جبتها مرةٍ عندما نقلت أكياس قهوة بسيارتك، وظل على أرضية السيارة حوالي كيلو حَبّ قهوة، من الأكياس الفارطة.. شحدته ابنتك سميّة، وعندما أرجعناه، دخلت علينا عايشه تقول: "خربتم الخلاط !" لكن لو كان عندي في الدار رجل، لاشترى لي خلاطاً، يبقى عندي في الدار، فلا أضطر لتسول خلاط عايشة بنت باكيت؟" فأقول لها منهكاً، وقلبي يكاد ينفرط عقدهُ، من شدّة التعب : يا مره استحي على حالك... أنت تعرفين أن باكيت هذا أبي! يعني البهدلة ضرورية كل مساء؟ أنا متعب وجائع، وأريد أن أذهب إلى المرحاض، لحين ما تدبري لي لقمة سمٍ، آكلها. فتقول لي:

- والله لن أقدم لك شيئاً، قبل أن توقف هذه القحبة عند حدها ! هات ماذا جبت معك للبيت المليء بالقواريط المتصائحين، الآكلين للزلط؟ فأقول لها بتذلل : "والله ما جبت شيئاً هذا اليوم! اليوم كله مشاكل يا مره! مليح مني أنني قدرت أن أصل إلى البيت !"

- تعني أنك لم تجلب نقوداً ولا أكلاً، ولا خضاراً، ولا لحمة للبيت؟!

- لم أحضر هذا اليوم، حتى ولو "باكيت" ، أنت تعرفين أننا ندفع لصاحب السيارة عشرين دينار كل يوم .. طيب والله إن السيارة طوال اليوم، لم تشتغل بعشرين دينار !

- (ما دام ما فيش مبتلزمنيش يا اخوي! انت زلمة لا للسدِّة، ولا للهدِّة، ولا لعثرات الزمان! شو بدي فيك، خليك برّه الدار ؟!)

- ما دامت لا تريدينني، حاضر ! فقط اسمحي لي أن أذهب إلى المرحاض، وبعدها، فأنا طالع، وتارك لك البيت، تسيدي وتميدي فيه! طلعت من المرحاض يا اخوي يا مراد، قمت وحملت حالي مرّة ثانية، وطلعت أنام، أنا والشحن في الساحة الترابية التي لقيتني عندها !"

أوصل أبو نادر الشحنة إلى دكان الزهور، فسألته:

"كم تريد أجرتك ؟" فطلب أبو نادر عشرة دنانير، فأعطيته خمسة عشر ديناراً، وودّعته، ولم يأت الصباح، إلا والأزهار قد أخرجت من صناديقها، وعرضت في الدكان، بانتظار أن يجبر الله عني تلك الأزهار، آملاً أن لا تذبل قبل أن يشتريها أحد، فلا أخسر الزهور، ولا أخسر بتجارتها! ورحت أحدّث نفسي قائلاً :

" الناس والزوار والمارون يستمتعون بمشاهدة الزهور، وأما نحن أصحاب الزهور، فشعورنا مختلف! إننا نقف أمامها، كمن يقف أمام قنبلة موقوتة! تتكتك! يريد أن يتخلص منها، قبل أن تذبل! وإلا كسدت بضاعته!

إنه عذاب السوق، الذي لا تفهمه امرأة أبو نادر!"

المدير العام !

لم يكن أبو الفتوح قد انتهى من بناء قصره الضخم، عندما دخلت عليه سكرتيرة الخاصة رهام بخجل شديد، وبصمت، ودون أي تعليق، فوضعت على طاولته الوثيرة ذلك الكتاب اللعين!

لم يقرأ الكتاب، فقد كان يدخن سيجاراً كوبياً عظيماً، يكاد يفسخ إصبعيه ؛ السبابة والوسطى، ويثقل توازن البنصر المطوق بخاتم ذهبي غليظ، ينم عن شبق ذهبي، وهو مشغول بمواصفات بناء قصره الفخم . وبالرغم من كونه المدير العام للمؤسسة، ذات المسؤوليات المتعددة، إلا أنه كان يصرف معظم وقته الإداري في متابعة بناء بيته الخاص. وكان سالم ؛ كبير المهندسين، يتبعه كظله، وينفذ له كل طلباته وأوامره :

"أريد منك يا سالم أن تراقب تشطيب مدخل البيت حسب المخططات، بحيث تتأكد من دقة تركيب الحجر والجرانيت عند المدخل الرئيس ؛ سواء مدخل السيارات جهة اليمين، أو غرفة الاستعلامات التي في وسط المدخل، أو باب المشاة من أصحاب البيت، وكبار الزوار جهة اليسار." فيرد المهندس سالم قائلاً :" حاضر سيدي."

" أريد أن يدخل عامة الناس ممن لهم مطالبا إلى الاستعلامات أولاً، فيقدمون بطاقاتهم الشخصية، ويطلبون موعداً للمقابلة، وإذا كان مع أحدهم موعد مسبق، فيستطيع أن يدخل من باب غرفة الاستعلامات، باتجاه الباب الداخلي، الذي يفتح على ساحة الحديقة الأمامية."

"حاضر سيدي." يقول سالم مخفضاً رأسه.

" لا أريد إرباكاً من أي شخص فضولي،" يقول المدير وهو يدير كرسيه الفخم الدوار، غير ناظر إلى المهندس " فانا أحب الهدوء والاسترخاء داخل بيتي، ولا أريد أن أضيع وقتي بمطالب هذا وذاك: هذا يريد تشغيل ابنته، وذاك يريد إدخال ابنه إلى الجامعة بالواسطة، وذاك يريد إعفاءه من فاتورة المستشفى، وتلك تريد معونة، وذاك يريد أن يسمحوا له بـ..." فيؤيده المهندس قائلاً :"كلامك صحيح سيدي!"

" تأكد لي من تأسيس مواقف سيارات لعامة الزوار،" يحكي وهو يشير بسيجاره إلى جهة ما " والتي لا يسمح لها بالدخول إلى ساحة الحديقة، بل تقف خارج سور المنزل. وكذلك تأكد لي من دقة رصف حجر الكندرين الذي يحدد الشارع، ومواقف السيارات داخل الحديقة لأصحاب المنزل، ومواقف كبار الزوار.

" حاضر سيدي !" وتابع أبو الفتوح آمراً مهندسه:"أريد مواقف السيارات المزفتة، أن تكون مخططة، ومظللة بالقرميد، بحيث يبرز حولها الرصيف والبلاط الذي فكرنا فيه مؤخراً، وقررناه حسب الرسم."

"حاضر سيدي ." يجيب سالم، فيتابع سيجار أبو الفتوح قائلاً :

"أريد منك أن تراقب التشطيبات الأخيرة لممر الحراسة الملاصق للسور الداخلي، والممتد على طول السور من الداخل، على الواجهات الأربعة، أريد أن يأخذ الحارس راحته، وهو يسير طوال الوقت داخل السور، لأنك تعرف أن الناحية الأمنية مطلوبة، فالسارقون والمارقون والحاقدون والحاسدون والعاطلون والباطلون والمدّعون والإرهابيون. قد يتسلل أحدهم، ويقفز من السور! فيلتقطه الحارس مباشرة (قالها وهو يضحك)! فأجابه المهندس سالم ضاحكاً بالمعيّة:

"(بيوقع عالموت، بيلاقيه قبّاض الأرواح سيدي! بيلاقيه بالأحضان سيدي!). فيضحك المدير العام قائلا :"حلوة هذه قبّاض الأرواح !" وعندما ضحك المهندس سالم بمعيته ، ظهرت أسنانه السوداء المنخورة بفعل التسوس، مع ما يجاورها من أسنان مصفرّة، مثل حبوب كوز ذرة تالف، أكلتها العصافير.

"أريد أن تقف سيارتي، أو سيارة كبار الزوار عند المدخل الرئيس للبيت، فيكون على اليمين درج رخام جرانيت عريض، وعلى يسار السيارة، البحرة الدائرية، ذات النافورة العمودية، حيث سيترقرق الماء في البحيرة الصغيرة." نفض سيجاره الكوبي وهو يتابع قوله:" تعرف يا سالم أننا نحن العرب ليس في بلادنا ماء، ومجرد مشاهدة الماء في الحديقة، متعة كبيرة. نحن عقدتنا الماء والخضراء!" فأتبع المهندس سالم حديث مديره قائلا : "الماء و الخضراء ووجهك الحسن يا سيدي."

" شكراً شكراً. أخجلتم تواضعنا يا سالم."

مد أبو الفتوح يده إلى الكتاب الذي أحضرته سكرتيرته الخاصة رهام. ولكنه لم يقرأه . ظل الكتاب بيده اليسرى، بينما هو يشير بالسيجار العظيم باليمين." تعرف أننا اخترنا التدفئة الفرنسية التي ستمدد تحت البلاط الإسباني المشوي مرتين، و الرخام كله سيكون من الجرانيت الإيطالي، والمغاسل وكل أسطح المطبخ ستكون من مادة الكوريان، والحمامات الإنجليزية العريقة، واخترنا الألوان الهادئة داخل غرف المنزل ؛ مشتقات اللون الأزرق لنا، ومشتقات اللون الأخضر للأولاد، ومشتقات الزهري للبنات، والبيج الفاتح في الصالونات، والبني الفاتح لخشب البلوط في المطبخ الألماني." فحك المهندس بقايا شعر رأسه، وهو يقول:" الألوان الهادئة مريحة للنفس سيدي!"

وضع أبو الفتوح سيجاره الهافاني الضخم على المنفضة الكبيرة، وأمسك الرسالة بيديه الإثنتين، من اليمين واليسار، وحاول قراءتها، فانتبه إلى أن فحواها شيئاً غير عادي! فبلع ريقه وصمت! ثم فرك عينيه وأعاد قراءتها من جديد وقال:

"غير معقول، يقيلونني مرّة واحدة! ودون سابق إنذار! لقد تعاونت معهم في كل شيء، ومررت لهم كل ما يريدون!"

سمع المهندس سالم بخبر الإقالة! وكان متوقعا ذلك، لأن سمعة أبو الفتوح أصبحت على كل لسان، كثيرون داخل المؤسسة كانوا يقولون: إنه يستغل منصبه، ويستخدم المقاولين ؛ فهذا المقاول يرسل إلى بيته هدية تدفئة مركزية لكل البيت، وهذا يرسل هدية رخام وجرانيت إيطالي لكل البيت، وهذا يرسل له كل حجارة بناء البيت هدية، وذاك يرسل رمل وإسمنت وحديد البيت، على شكل هدية! وبالمقابل يحصلون على أولوية في العطاءات والمقاولات التي تعرضها المؤسسة، وإذا أخذوها، فإنهم يحصلون على

تسهيلات في الاستلام والتسليم لمشاريعهم، حتى لو كانت غير مطابقه للمواصفات.

استأذن المهندس سالم، وخرج وهو يثرثر :

"لو دامت لغيرك لما وصلت اليك يا أبو الفتوح! كان المفروض أن تعمل كما يعمل غيرك، فتستلم الهدية نقداً، وتودعها في بنك خارج البلاد، ولا من شاف، ولا من درى! لكنك كنت أجرباً وجشعاً وأهبلاً، فوقعت قبل أن تصل إلى نهاية الشوط !"

لكن السؤال السخيف الذي يحيِّر أبو الفتوح الآن هو:

من سيزور بيته بعد اليوم، حاملاً معه مطالب شخصية، فيدخل من باب الاستعلامات، ويقدم بطاقته الشخصية لموظف الاستعلامات، أو يقدم طلبا للزيارة؟

ولماذا سيقدم طلباً للزيارة؟

ومن الذي سيحرس الممر العريض المبلط، والملاصق للسور من داخل الحديقة، من الجهات الأربع؟

ولماذا سيحرس؟

وعلى حساب من سيحرس؟

ومن سيدفع له ذلك المرتب (المرتب)؟

وعلى ماذا سيخاف أبو الفتوح بعد اليوم، وهو في حال لا ..؟

سيتحاور مع نفسه كثيراً بعد اليوم، إذ لن يجد أحداً ليحاوره، أو ليأمره، فيرد عليه المرؤوس بعبارة :

"حاضر سيدي!"

انتشر الخبر في المؤسسة، انتشار النار في الهشيم، وكان أغلب الموظفين يتساءلون عمن سيعينوه بعد (أبو الفتوح)؟

هل سيأتي مدير آخر ليبني قصراً جديداً ثم يطردونه، ليأتي الثالث والرابع والعاشر من المتنفذين، ليبني كل منهم قصره على حساب بركات المؤسسة اليتيمة؟

وهل ستبقى المؤسسة تنفيعة لـ.. أم إن القادم سيكون نزيهاً ومنضبطاً، ومراقباً من قبل الآخرين، كي يرحم أموال عباد الله المنتمين لهذه المؤسسة من الضياع؟

أسئلة كثيرة كنت تسمعها على لسان المراسل محمود والسكرتيرة رهام، والرسام جليل، والسائق أبو إبراهيم، وفني الكمبيوتر عبد الهادي، ومراقب العمال أبو يوسف وغيرهم.

وراح المهندس سالم يتحسس رأسه، إذ قد يكون هو الضحية القادمة للإقالة، ذلك لأنه كان يخدم الأغراض الخاصة للمدير العام السابق، ولكنه قال:

"إذا سألوني، فسوف أقول لهم :

- ماذا بيدي، أنا العبد المأمور ؟ ولكنهم سيقولون لي :

- ما دمت عبداً، وليس لك رأي، فلا داعي لأن تتسلم مسؤولية، وتكون كبير المهندسين!"

أخذ الخوف يحاصره أكثر فأكثر، عندما تخيّل أنهم سيقولون له :

" إن إقالتك مـن العمـل، قـد يتبعهـا تحقيـق قـضائي ثـم سـجن! ولهـذا صـار سـالم مرعوبا!" صحيفة المجد 2003

الشرخ!

دُهشنا من العبارةِ التي نَطَقَتها الطفلة بَراء ! كانت تجلسُ على حافَّة شباكِ غرفةِ الجلوس، وكنت أنا وزوجي، بضيافةِ جدتها وجدها لوالِدتها. لم تكن بَراء تلعب على حافّة الشباك ، بل كانت تنظر إلى المدى البعيد، وتضع إصبعها الشاهد في فمها، تمتصه، ثم تعود فتلقي نظرةً علينا نحن العجائز، المتسلين بالضحكِ على أحداث الماضي !

لِم تُعجبها ضحكاتنا ، وسرعان ما (بَقّتِ الحَصوَة) ونَطَقَت عبارةً أخرَستنا، وجعلتنا نراجع أنفسنا، ونفتش عن ضمائرنا، ونجترُّ أحاسيسنا، ونقف أمامها، وكأننا في محكمةِ الجنايات الكُبرى... كان القاضي هو الطفلة براء، التي نَطَقَت بالحُكم، واضحاً وصريحاً، إذ قالت :

" أتمنى أن أرى جدي وجدتي مُطلّقين، تماماً كما هو حالُ أبي وأمي مُطلّقين ! كل منهما متّجهٌ بطريق متباعد عن الآخر. إن الشرخ الفاصل بينهما، يكادُ يفصل رأسي، من قمّته إلى نصفين، ويستمرُّ باتّجاهِ قدمي."

توقفنا عن الضحِك هكذا بومضَة، بإشارةٍ من المخرج:

"ستوب!"

كان المشهدُ مؤثراً. كنا نحن الأربعة نضحكُ على كبر حجم غلاية القهوةِ النحاسية التي أحضرتها أم مهران على طبق به أربعة فناجين، متناسين الطفلةَ براء، الجالسةَ على حافةِ الشباك، بلا حراك، لا تلعب! ترفض الأطفال الآخرين! ترفض الطعام! ترفض ألعابها! ترفض كل شيء، حسب قول جدتها لاحقاً ...

"لا أريد أن آكل.ليس لي نفس.لا أريد أن ألعب.زهقت اللعب معكما. لا أريدكما. أريد أن ألعب مع أبي، أريده أن يحضر لي حلوى الشوكولا التي كان يحضرها لي وأنا صغيرة. أريد أن أركب على ظهره وأحضنه. أريد أن أنام على السرير بين أمي وأبي تحت اللحاف، وأشعر بالدفء، وهناك في العتمة أعمل خيمة، وأقعد تحتها هناك، وهما يرفعان أرجلهما أعمدة للخيمة! أكره أبي وأمي لأنهما لم يرفعا لي أرجلهما، فهدما لي خيمتي! أكاد أختنق تحت الخيمة! الدنيا عتمة تحت اللحاف! أين ذهبا وتركاني؟ لماذا أحضرتني أمي إلى هنا، ثم تركتني؟"

لم يفهم هذان العجوان السهولةَ التي قررت بها ابنتهما ناهد الانفصال عن زوجها سامر. لم تكن أم مهران ترغب بالفضفضة، وسرد تفاصيل حياة ابنتها ناهد، ولكنني عرفت تفاصيل القصة من شهيرة ؛ أم سامر. سمعت منها أن ناهد قالت لزوجها سامر:

" أنا حرة! أتصرف بحريتي! أنا موظفةُ بنك، وأنت موظفٌ في شركةٍ هندسية، وكل منا يتقاضى راتباً، وكل منا خريج جامعي، أنت تتأخر في الليل في عملك وزياراتك الخاصة، وأنا أتأخر في الليل، في عملي وزياراتي الخاصة!" فاستشاط سامرغضباً وهو يسألها:

" إلى أين زياراتك الخاصة؟" فقالت بلا مبالاة:

"هذا ليس شُغلك! أنا حُرّة، كما أنك أنت حُرّ! أذهبُ إلى أيِّ مكانٍ يناسبني، كما تذهب أنت إلى أيِّ مكانٍ يناسبك . أسهر مع الأصدقاء، أعمل(بزنس) وعلاقات مهنية تُكسِب ذهباً! سهرةٌ واحدةٌ مع رجلِ أعمال، أقنعه فيها أن يحوِّل رصيده من بنكه إلى بنكنا، وذلك الرجل رصيده بالملايين، ونحن لا نلعب! نحن نستثمر ذلك الرصيد في مشاريع استثمارية، وأسواق (وول ستريت، وهونج كونج) وغيرها! مثل هذه السهرة، تكسبني وتكسب البنك ذهباً!"

وفي حديثها الصريح مع والدتها أم مهران، قالت ناهد :

"صحيح أنّ هذهِ الأعمالِ أبعدتني عن طفلتي براء، وعن زوجي سامر، ولكن حياتي تتطلب أن أعيشَ مع جمهوري! جمهور البزنس والأعمال."

لم تكن والدتها العجوز تفهم ما معنى كلمة جمهوري، وكلمة بزنس، ووول ستريت، ولم تكن تفهم ابنتها قط، ولكن ناهد واصلت مصارحتها لأمها قائلة :

" الإنسان يا أمي يعيش حياتَهُ مرةً واحدةً! هم يريدونني أن أغلق على نفسي البابِ، وأتفرّغ لزوجي وابنتي براء؟ هذه الحياة خانقة، والحقيقةُ أنني حاولت أن أتفرّغ لهما، وأن أنجب مزيداً من الأطفال، ولكنني اكتشفت أنّ تلك الحياةِ سخافاتٌ قديمة! فنحن أبناء جيل القرن الواحد والعشرين، ننظِر إلى الحياةِ بمنظار جديد. عندي دوام بنكي في الصباح، وعندي سباحة بعد الظُّهر، ورياضةٌ في النادي، وفي المساء دورةُ تدريبٍ على اتصالات الإنترنت، وفي الليل أنا معزومةٌ على العشاءِ، في أحدِ المطاعم الشهيرةِ، في فندقِ خمسة نجوم، أو أيِّ مكانٍ آخر، ولا أصل إلى غُرفتي (السويت) إلا بعد الثانية صباحاً، أنام ثم أقوم للعملِ من جديد، فتتراكم أمامي مواعيدٌ جديدة . وأنا أحب براء، وأحبُّ سامر، ولكن ليس لديّ وقتٌ لأتفرغَ لهما. عرضت على سامر أن تبقى علاقَتنا الزوجية مستمرةً، لكن دون تلك الارتباطاتِ التقليديةِ في الزواج . هو يعيش حياته، وأنا أعيش حياتي، ونلتقي دون التزام! ولكنه رفض وقال :

" إما أن نعيشَ في بيتٍ واحد، مثلما عاش آباؤنا وأمهاتنا، وإلا فلا! قبل زواجي منكِ كنتِ كالأرنبِ الوديع، تحلُمين بعشٍ عصافير، عشاً يجمعنا معاً، يفقس فيه البيض، فيولدُ صِغارنا، وأنا وأنت نتبادل تربيتهم ومراقبتهم ودلالهم، ونفرحٍ لفرحهم، ونركض معهم في ملاعبهم، نُصحّيهم من النوم، ونغسلهم ونمشطهم، ونفطّرهم ونرسلُهم إلى الروضة، ثم إلى المدرسة، وكنت تقولين :

- أريد أن أنجبَ أولاً بنتاً، عيناها زرقاوين كعيني أبيها، وشعرها أشقر كشعر أمها، وأن ألعب معها، وأعتبرها كلعبةِ سندريلا، أو لعبةٍ باربي، أو جبينة كقرص الجبنة، أو سرايا بنت الغول ...أريد بنتا أسطورةً، تعيشني قصص الأطفال، أجدِّلُ لها جدائلها، مثل جدائل سرايا بنت الغول، وأن تكون جدائلُها طويلةً بطولِ الحبال، حتى تُدليها لابن عمها من القلعة، فيصعد متسلقا بها، ويقتحم قلعةَ الغول، ويخلّصها من الأسر. كنت رومانسياً وأنا أنصتُ لحديثكِ، وأقتنع بأنك تريدين بيتاً، سكناً يحمل معنى السكون، وأن نعمل أنا وإياكِ معاً، وأن نفطر ونتغدى ونتعشى في البيت، إلا في المناسبات، فإذا بكِ تفطرين وتتغذين وتتعشين في الخارج، لا أعلم أين، فلا ألتقي بكِ إلا في المناسبات! هل هذا هو الزواج الذي كنتِ به تحلمين؟ أنا لا أحبُّ أن أفطر وأتغذى وأتعشى خارج المنزل، أحبُّ أن أشاهد أطفالي وهم يفيقون صباحاً، وأن أشاغب معهم، وهم يغسلون وجوههم وأسنانهم وهم يفطرون، أستقبلهم وهم يعودون من المدرسة، أحب أن أعمل ميدانياً، ولكنني أحب أن يكون لي

سكونُ بيت. أنا لم أعُد أطيق غيابكَ غيرَ المبررِّ هذا، اسمعي يا ناهد ؛ عليك أن تختاري الحياةَ الزوجيةَ المُنضبطةَ، بكلِّ أبعادِها، وأن تستأذني، وتأخذي موافقتي على كل زيارةٍ لكِ وحيدكِ، خارجَ المنزل، أو أن تتركي هذا البيت نهائياً، فأنا لم أعُد أستطيعُ أن أمثِّلَ دورَ (طرطور) في هذا المنزل، وكما قال نزار قباني :

- (اختاري الحبَّ أو اللاحبّ...لاتوجدُ منطقةٌ وسطى مابين الجنةِ والنار.) وهكذا أنا، لايوجد عندي منطقة وسطى مابين انتماءِكِ للبيتِ والزوج والأطفال، أو الطلاق! هذا هو قراري الأخير ... سامحتك، دلّلتك، تركتكِ على هواكِ، لعلَّكِ تفيقين من تصرفاتِكِ الشيطانية ، ولكنك تماديتِ في غيِّكِ ! وأنا لا أفهمُ الحريةَ على أنها انفلات، والعملَ على أنه خروج عن الذات، أنا أفهمُ أن نعيش بحريةٍ مسؤولة، حريةً محافظةً على العاداتِ والتقاليد، وإلا فلا !"

قلتُ لـه :" فلا!" فقال :

"ناهد أنتِ طالق! طالق! طالق! بالثلاثة!"

تركنِي وخرج ! زوجٌ متخلِّفٌ، عقليةٌ قديمةٌ كالنعل القديم ! صحيح إنِ الطلاقَ هزني نظرياً، ولكن عملياً كنت كالمدمنةِ على السجائر، لا أستطيعُ أن أكبحَ جماحَ اندفاعاتي في حصولي على الحريةِ التي صارت بيدي، تركتُ ابنتي براء عند والدتي... والدتي تحبُّ براء بالتأكيد، وجدتُها فرصة! فأولادها كبار، ولا يقعدون معها دقيقةً في اليوم، ولكن براءِ تقعدُ معها طوالَ اليوم وتسليها، وأمي من النوع الذي يحب الأولاد وخدمتهم، ومتابعة تربيتهم، ومطاردتهم والتعفرتِ معهم! أما أنا فخلقي ضيِّقٌ! وبصراحة أنا أحبُّ الأضواء، وأحبُّ السفر، أحب الشاطئ الأزرق. الحياةُ على(البيتش) ممتعة! الإنسانُ يضحكُ هناك من كلِّ قلبه! تزوجت سامر لأدخل معه دنيا (البزنس) ودنيا المجتمعِ الراقي. كان زواجي من سامرِ على شكل اندفاعةٍ عارمة، شعرت بالانطلاقِ نحوه، وكأنني اخترقتُ الزجاجَ، وطرتُ من النافذةِ الواسعةِ نحوَ بركةِ السباحةِ الخارجية! وما بعدها من جلساتٍ وسهراتٍ ممتعة، ولكنَّ بركةَ السباحةِ فيها أناسٌ وعالمٌ ومجتمعاتٌ راقية، مجتمعاتٌ منفتحةٌ على الهواءِ الطلق، تعيش بلا عُقد، وبلا معوقات، وأنتم تأتون لتقولوا لي: ارتباط زواج!"

كانت الطفلة براء تستمع إلى حديث أمها، مع جدتها من وراء حجاب، بينما دموعها تنهمر على خديها الزهريتين!

جريدة الدستور 2003

الطائرة الورقية.

حدثني عائد الحيفاوي قال : ثارت باربرة ؛ الراعية الغربية لحقوق الحيوان، وصرخت بأعلى صوتها، وجمعت الدنيا علي ، عندما ذبحت خروفا ؛ أضحية العيد، وقالت: "أنت عربي فلسطيني وإرهابي !" ومن يومها حرمت أن أذبح خروفا، أو حتى أرنبا، وحرمت أن أكون إرهابيا مع الحيوانات، وأصبحت كل يوم، أمرٌ على حمار جارنا (أبو العبد)، فأصبح عليه، وأمرٌ على قطة جارتنا أم إبراهيم، فاقدم لها فروض الولاء والطاعة، وبالرغم من ذلك، حاصرتني كل اللجان والجمعيات والمؤسسات الخيرية والتعليمية والثقافية والتمويلية المنادية بالرفق بالحيوان، والمنبثقة عن الأمم المتحدة، فأصدرت قراراً بتشديد الحصار علي شخصيا، وألحقتني بالدول العربية المحاصرة، مثل السودان والصومال وفلسطين والعراق، ولم تعد الطائرات تحط أمام بيتنا، فانقطعت من جميع المواصلات، والاتصالات السلكية واللاسلكية، البرية والبحرية والجوية. فقال لي جارنا أبو حسن، رحمه الله :" تعايش معهم، فان لينين العظيم، هو أبو التعايش السلمي." فقلت :" نتعايش! لماذا لا نتعايش؟" وعندما قررت أن أذهب بنفسي إلى المجتمع الدولي، لأشرح لهم موقفي، ورأي علم النفس الاجتماعي في ذبح أضحية العيد، لم أجد مواصلات للسفر إلى أوروبا، فاستخدمت طائرة ورقية للسفر بها، اشترى لي أخي حمدان خيوطها من قاع المدينة، من عند (الكندرجي) ؛ أبو خضر، وقال لي : " هذا الخيط قوي، ولا يقطع أبداً."

ركبت الطائرة الورقية، وطرت بها إلى أوروبا. هكذا قالوا لي:" هذه الأشرعة الورقية، لا تكشفها الرادارات، لأنه ليس لها ذبذبات، أي إنها لا تتذبذب" قلت لهم : ولكن مختار جارتنا أبو سلام يتذبذب لمدير مخفر الشرطة، ويقول له: " أمرك سيدي! أمر الأمباشي ماشي. وإذا أمرتني، فسوف أجمع لك القرية كلها، وأوقفهم أمامك على قدم واحدة، وأيديهم مرفوعة إلى الأعلى، ووجوههم للحائط، فأنا مستعد!"

وكان حظي أن نزلت طائرتي بشكل عشوائي، فوق مدينة ساحرة الجمال، مكتظة بالناس والعمارات، اسمها براغ! هناك استقبلني بحفاوة الدكتور رومان، دليل السياحة التطبيعية. بعدما دفعت له البترو دولارات، وقال: "تعال نذهب لزيارة الجيتو اليهودي هناك، للبحث عن السلام." فقلت له :" سلام، سلام !" دخلنا حارة الجيتو، وهي حارة قديمة أثرية، ضيقة صغيرة المساحة، في مقدمتها شارع ضيق، بعرض حوالي مترين فقط، يوصل إلى كنيس يهودي صغير، جهة اليمين، وبعده مبنى من ثلاث طوابق، فيه أسرة ذات عدة طوابق، على شكل عنبر مكثف مضغوط، فيه صور ورسومات لكيفية الحياة والمعاناة التي كان يعيشها اليهود حتى بدايات القرن العشرين، والأسلاك الشائكة، ونظرات البؤس والحزن في عيون أطفال وعجائز اليهود، حيث كانوا محرومين من فرص العمل المرموق، والتعلم والسفر، والتفاعل مع المجتمع الأوروبي آنذاك، فكانوا يضطرون لتعليم بعضهم البعض، مثل مدارس الكتاتيب قديما عند العرب، وفي نهاية الحارة، توجد مقبرة مكثفة لموتاهم، حيث تشاهد شواهد القبور مغروسة بارتفاعات تصل إلى المترين، متراصة إلى جانب بعضها البعض، مثل الحشد الجماهيري ! لتعني ضيق المساحة المسموح لهم بالدفن فيها، حتى كأنهم كانوا يدفنون موتاهم فوق بعضهم البعض. شعرت بالحزن والتعاطف مع يهود أوروبا، الذين كانوا قد هُجروا من الأندلس، مع رفاقهم العرب

الساميين، في نهاية القرن الخامس عشر، فانتقلوا من الجنات العربية، إلى الجيتوهات الأوروبية.

وعندما تذكرت مجندي إسرائيل، قفزت إلى دماغي الصور التي تعرضها أخبار التلفزيون يومياً، حيث تشاهد عدة جنود، يجرون طفلة فلسطينية من شعر رأسها، في الشارع العام، ويهرع أبو الشوارب وفطين الأكتع، وأبو ذراع، وكل أصحاب الدكاكين المتراصة على جانبي شارع الاستقلال الفلسطيني، مشدوهين بمنظر البنت المجرورة، وهي تلبس ملابس المدارس، وحقيبة كتبها تنفلت من بين يديها المتشبثين بالعلوم، قالت البنت وهم يسحلونها بالشارع باتجاه سيارة الجيش التي تجمع المواطنين غير المستسلمين للاحتلال: "تسحل الحقيبة، وتسحل العلوم، ولا أسحل أنا عن شعر رأسي!" وبعد عدة أمتار، سحلت فردة حذاء من قدم البنت، وكانت البنت تصرخ بأعلى صوتها، وكانت باربرة ؛ راعية حقوق الحيوان، تستمع بالسباحة على شاطئ الريفيرا الفرنسية، حيث الشمس ساطعة، وسعاد حسني تغني وهي ترقص: (الدنيا ربيع، والجو بديع.. قفّل لي على كل المواضيع..قفّل، قفّل، قفّل!) وباربرة تأخذ حمام شمس رملي ، والبنت مجرورة في شارع الاستقلال، والجنود الإسرائيليون مرهقون، من كثرة ما جروا من الأطفال الفلسطينين في ذلك اليوم، (مناظر تفقّع من الضحك)! حيث تشاهد طفلاً يصيح، ويقول لمن يركضون معه : "في رقبتي رصاصة، أحاول أن أسحبها، فترفض أن تطلع!" وتشاهد ولداً آخر يجلسه المجندون على الأرض، ويضعون ذراعه على حجر، ويدقون عظام ذراعه اليمنى بأعقاب بنادقهم، ثم ذراعه اليسرى، قالوا يجب أن تبدأ باليمين! وبينما هم يطحنون العظم طحناً، وليس كسراً، يقول مجند لزميله:" الكسر يجبر، أما الطحن، فكيف يجبر؟" ثم يضحك مع زملائه الآخرين ؛ ضحكات صاخبة! والولد يصرخ، ومناظر تفقّع من الضحك، على رأي الولد أحمد، ابن جيراننا.. وذلك لأن أحمد الذي يفقع من الضحك على هذه المناظر، كان قد ضربه المجندون، واستمروا بضربه، وضرب رأسه بالحائط، فتناثر دم عينيه وأنفه وفمه، ليغطي ملامح وجهه، الذي صار مشوهاً لدرجة لم يعد أحمد يدرك أن هذا هو وجهه الذي عرفه سابقاً! ولذلك فقد الولد وجهه، وصار طوال النهار يضحك على الحلوة والمُرّة! وكل شيء عنده يفقّع من الضحك! وهكذا صرنا نقول عن أي شيء من أعمال المجندين، إنه يفقع من الضحك!

حاولت باربرة أن تظهر، وتَفْقَع خطابا جماهيرياً أمام عدسات التلفزة الفضائية، لاستنكار الضحكات التي كان يطلقها أحمد بلا سبب، وأن تقول له:" الضحك بلا سبب، من قِلّة الأدب." ولكنها كانت مشغولة بالحمام الشمسي على شاطئ البحر، ولم تتمكن من التفرغ للتصريحات.

شاهدتُ دفترا معروضا على طاولة، داخل مبنى الجيتو، كان مُعَداً للتوقيعات، يدون عليه الزوار تعاطفهم مع يهود الجيتو، فكتبت على دفتر التدوين:"إن صورة يهودي جيتو براغ المظلوم هذا، قد تحولت في ذاكرة شعوب العالم، إلى صورة المجند الإسرائيلي الظالم للطفل الفلسطيني! ترى لماذا قلبتم الصورة ، ففقدتم تعاطف العالم معكم؟"

لم يلتفت إلى كلماتي أحد، بل واصل الناس طريقهم!

أحسست بالغربة، فقررت العودة إلى أرض الوطن، وركبت طائرتي الورقية، التي لا يكتشفها الرادار، وعدت سابحاً في الفضاء، ولدى مروري فوق غابات جبال الكرمل، انجذبت عشقاً وهياماً بحيفا وبأحراشها، فخفّضت مستوى

طيران الطائرة، لأشم رائحة السنديان والصنوبر والزيتون، فشبك خيط الطائرة بغصن شجرة، فهبطت بي الطائرة، وانتهى بي المطاف هناك!
مجلة صوت الوطن. رام الله. 10. 2003

الغريب !

عاد أنيس الحوراني، من مدينة البقاع، إلى مدينة حوران ؛ مسقط رأس جده، عوض الحوراني، وذلك على أثر الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من خمس عشرة سنة، والتي أكلت نيرانها الأخضر واليابس، في كل البقاع. عاد هو وأفراد عائلته، إلى بلد جده، فهو مثل غيره من عامة الناس، ليس لأحد منهم مصلحة في مثل تلك الحرب الأهلية البشعة، التي يكون الجميع فيها مغلوبين ؛ فهذا يطلق النار على الشارع، فيصيب من يصيب، وتلك قنبلة موقوتة، أو غير موقوتة، تنفجر في عمارة، يموت فيها من يموت! ففي الحرب الأهلية، أنت لا تعرف من قتل من ؟ ولماذا قتل من ماذا؟ وكيف، وقع في الحيف؟ والفيل في المنديل، والفُلّة في الفانيلا، والسلاطة عالبلاطة، ويا طالع الشجرة، هات لي معك بقرة، تحلب وتسقيني، بالمعلقة الصيني! مجرد إطلاق نار، يأتي من جهات متعددة، فيصيب جهات متعددة! كانوا يطلقون النار.. الجهة الشرقية تطلق على الجهة الغربية، والشمالية على الجنوبية، والجنوبية على الشمالية، والأرض تطلق على السماء، والسماء تمطر الأرض بوابل من زخات الرصاص... وعند الظهيرة تنطلق سماعات اللجنة المشتركة، معلنة أن الهدنة ستكون في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ولمدة ساعتين فقط، يمنع فيها إطلاق النار، فينزل المسلحون بجميع فئاتهم وأطيافهم ؛ القتالية والحزبية، والتقدمية والرجعية، والملكية والجمهورية، واليمينية واليسارية، والجهوية والفئوية، والشبلية والعجائزية، والشرفية والقوادية، والعلمانية والدينية، والإقطاعية والانتهازية، والعواطلية والمهنية، والمرتزقة والمتطوعة مجاناً.. كلهم ينزلون إلى وسط المنطقة العازلة لشراء الطعام والشراب، فيجلسون مع بعضهم، ويأكلون ويشربون، ويصلون ويسكرون، وينامون ويقومون، ويتبادلون الأسلحة، التي اغتنمها كل فريق منهم من الآخر، يتداولونها بالتبادل، أو بالمقايضة، أو بالمحبة، أو بالخاوة، أو بالرجاء، أو بالقوة ! فهذا المقاتل الجبلي، صاحب المسدس، يلتقي مع المتطوع المدني، الذي لا يملك سوى ساعة معصمه. "من أين لك هذه الساعة؟ هذه الساعة حلوة!" ..."من أين لك هذا الفرد؟ هذا الفرد حلو!".. "ما رأيك تبدل، الساعة بدل المسدس؟ والمسدس بدل الساعة ؟"

"لأ. الساعة بدل الفرد!" .."لأ. الفرد بدل الساعة!"

يتبادلان، ويعود الجبلي إلى الجبل، بلا مسدس، ولكن معه ساعة جميلة، فيقابله رفاق الجبل، بأسلحتهم الحديثة، فيسأله الرفيق غظب :

" من أين لك هذه الساعة؟" فيجيب خائفاً:"تبادلتها مع ابن المدينة ." فيدهش غظب ويسأله "بدّلتها بماذا؟" فيجيب المستضعف :"بالفرد!" فيجن جنون غظب: "والآن أنت بلا فرد؟" فيتحجج الرفيق قائلاً : "لكن معي ساعة !" يستغرب غظب غباء الجبلي! ويسأله: "لكن لو اليوم، تحداك واحد، وسحب فرده عليك، وقال لك: هيك وهيك لأمك! فهل تقول له: الساعة الخامسة والنصف؟" ضحك كل المقاتلين على حامل الساعة ..

كانوا يتبادلون كل شيء، ويشربون الشاي والقهوة والعرق، مع بعض، وعلى طاولة واحدة، مسحوبة مع كراسيها، من أي مطعم أو مقهى مهجور، وليس له من يحميه، وعند انتهاء الساعتين المذكورتين، يقوم كل إلى سلاحه، ويهرب بسرعة باتجاه خندقه، ثم يأخذون بالتراشق، كل باتجاه الآخر..وهات يا رش مطر..وهات يا بحور دم.." لك هذا دم مزح! قصدي مثل المزح! صحيح إنه دم ، دم، لكنه مزح، مزح!" والناس مثل ضحايا العيد، ممددة في الشوارع، ولكن يا حسرتي، فضحايا العيد، تجد من يغسلها، ويتبلها، ويحفظها، ويأكلها، وأما هذه الضحايا، فلا يأكلها سوى الوطن! فيجيب الرفيق:

فعلاً، الوطن هو الذي يأكلها!

كان أنيس الحوراني يشعر أن الانتصار الوحيد في تلك المعارك يتم عندما توقَف الحرب. لم يقتنع بتلك الحرب غير المبررة، ولا بذلك الدمار الشامل، الذي أصاب البلاد ، ولذلك قرر العودة، هو وأفراد عائلته، إلى مدينة حوران، مسقط رأس جده عوض الحوراني.

استقبله أهل مدينة حوران مرحبين مُحيَين. واشترى أنيس بيتا، كان مهجورا، من أناس محتاجين، ورمم البيت وطوّره، إلى أن غدا من أجمل وأكبر بيوت المدينة، مما جعله ملفتاً للنظر، فسماه أهل الحي بيت (أنيس البقاعي) وأخذ أنيس البقاعي، يستأجر أرضاً ويزرعها، ويتاجر ويظهر في الحي بنشاطه، وحسن اداءه، فاعتبره متنفذوا الحي، منافساً لهم، واضطروا لمقاومة نشاطاته، وذلك بإثارة الشغب حوله، فقال أحدهم : "هذا الغريب أنيس البقاعي، يسيد ويميد في أرضنا!" وقال آخر: "لن نسمح لهذا الغريب، بالتسيد في أرضنا!" وقال ثالث:

"مادام هذا الغريب بقاعياً، فكيف نسمح له حتى بالتواجد في أرضنا!"

أحس أنيس بما يشاع حوله من تحديات، داخل مدينة حوران نفسها، فجلس يستعيد ذكريات وحكايات جده (عوض الحوراني)، التي كان يحكيها لهم في كل ليلة من ليالي كانون النار الشتائية : " كنت يا أولادي شاباً يافعاً في مدينة حوران، في زمن تركيا، وكانت مدينة حوران عبارة عن بيوت حجرية متناثرة، مشيدة بالطين الممزوج بالتبن. وفي المدى الشرقي خيام بدوية. كانت حوران يا أولاد، منطقة حضارية تصدر القمح والحبوب إلى بلاد أوروبا، حتى سماها الأوروبيون؛ مخازن حبوب العالم. ولكن عوامل التصحر والتعرية من جهة، وعوامل التنافس والتشاحن الداخلية، بين أبناء العمومة والخؤولة، وأبناء الإقطاعيين ؛ الأقارب منهم والأباعد، أفرغت الحبوب من مخازنها، فحلت محلها الذئاب والضباع والجوارح!"

كان عوض يومها أسمه (عوض الرشدي) شاب عملاقٌ قوي البنية، ولكنه مسالم، ولا يحب الدخول في المشادات العائلية والإقطاعية. ويستمر شريط ذكريات الحفيد (أنيس عواد فرج عوض الحوراني) حيث كان الجد يقول لأحفاده : "لو توجهت للمشاحنات والمشاكل العائلية والاقطاعية عام 1850 فلن أجد حلاً أفضل من تهجير كل سكان مدينة حوران، ثم أبدأ بإسكان أناس جدد، من جمهورية أفلاطون الفاضلة. وحتى لو أسكنت هؤلاء في مدينة حوران، فإن الناس، طبيعتهم غير متجانسة، فإذا لم تكن هناك مشاكل، فالناس لا يرتاحون! ولذلك يخلقون النكد والفتن، كي يشعروا بالحياة. هذه سنة الحياة! بدأت بالصراع، كما بدأ قابيل وهابيل؛ أولاد آدم وحواء، فقتل الأخ أخاه. واستمرت المشاكل حتى يومنا هذا.(أنا أصنع مشاكلاً، إذاً موجود!)"

ومن يومها شعر عوض الرشدي بالغربة عن ذلك المجتمع. كان غريبا داخل بيته، وحارة أهله، وكي يبتعد عن المشاكل. ولا يدخل فيها، هاجر عام 1850 من مدينة حوران سيراً على الأقدام .. وعلى ظهره زواده طعام وماء، باتجاه البحر الأبيض المتوسط. وتنقل من قرية الى قرية، غريبا متجولا، يسير متألماً، وهو يشعر أن الهجرة أقسى من تأثير الرياح العاصفة، التي تخلع الأشجار من جذورها العميقة، فتنقلها إلى أوعية أو قوارير، ثم ترويها العاصفة، فبعضها يبقى، وبعضها يموت. وقد تنتعش الأشجار المنقولة المهاجرة، ولكن أي عطش قد يصيبها داخل وعائها، فإنه يميتها، بينما الأشجار الثابتة جذورها في أرضها، لا تموت، حتى ولو أصابها العطش، عدة سنوات، فإنها تقاوم!

كان كلما وصل إلى قرية من قرى المنطقة، اتجه إلى مسجد القرية، لينام فيه تلك الليلة، وفي النهار يتعرف على إمام المسجد ومعارفه، فيعمل راعي غنم عند هذا، أو حراثاً عند ذاك، أو حصاداً مع الحصادين، مقابل الطعام والمأوى. ومصادفه كان تواجده مع بعض الأجراء في مدينة البقاع، حين هاجم حرس الإقطاعي المخيف (حسن أبو شملة) بيادر الفلاحين..هل سمعت عن حسن أبو شملة ؟ خاف الفلاحون، وأخذوا يرتجفون أمام جبروت الحراس، فما كان من عوض الرشدي، إلا أن أوقف رعبهم، وجمع شملهم، وواجه حراس الإقطاعي بهم، فهزمهم، وحمى غلّة الفلاحين، فهتف الفلاحون حوله، وعلى أثر تلك الحادثة، زوجه كبيرهم؛ الشيخ يوسف الجبل، أجمل بناته، وكان اسمها زينب وأسكنه غرفة في بيته - طبعاً أنت تعرف الشيخ الجبل!- وماهي إلا ثلاث سنوات، حتى بنى (عوض الرشدي) بيتا واسعاً على أطراف مدينة البقاع، فصار الناس يسمونه بيت (عوض الحوراني)، لأنه جاء من مدينة حوران، وازداد عدد أولاد وبنات عوض، حتى صاروا ستة عشر ولداً وبنتاً، فشعر اقطاعيوا المنطقة، أن ذلك الغريب، قد أصبح وجيهاً من وجهاء المنطقة، يُعتدّ ويستجار به، إذا ألمت ملمّة بمستضعف، وبالتالي صار يكسب مالياً ومعنوياً، على حساب وجهاء وإقطاعيي البقاع. وهم لايسمحون لغريب أن يصير كبير المنطقة، فتآمروا عليه، وقال أحدهم : " هذا الغريب، عوض الحوراني يسيد ويميد في بلادنا." وقال آخر :"لن نسمح للحوراني الغريب، أن يسيد في بلادنا." وزاود عليه جاره قائلاً :" لن نسمح للحوراني بالتواجد ، مجرد تواجد ،في بلادنا!" ولهذا أرسلوا له مأجوراً، يهم بأثارة الفتن والمشاكل حوله، بهدف إشعاره أنه غريب، ومرفوض بينهم. ولتأكيد غربته، صاروا ينادونه باسم ؛ (عوض الحوراني)، وصار أولاده يسمون (أولاد الحوراني). وأحفاده يسمون (أحفاد الحوراني) . وهكذا صار اسمه (أنيس الحوراني). وعندما عاد (أنيس الحوراني) إلى مسقط رأس جده ؛ (عوض الحوراني) على أثر الحرب الأهلية، في كل البقاع، وحاول الاستقرار في مدينة حوران، اصطدم بالمتنفذين الجدد من أهل المدينة، الذين اجتمعوا وتآمروا عليه! فقال أحدهم : "هذا الغريب (أنيس البقاعي) يسيد ويميد في أرضنا!" وقال آخر: "لن نسمح لهذا الغريب (أنيس البقاعي) بالتسيد في بلادنا !"وقال ثالثهم كلبهم:"مادام هذا الغريب (أنيس البقاعي) بقاعيا، فكيف نسمح له حتى بالتواجد في أرضنا ؟!"

ولكن أنيس لم يعد يهمه، ما إذا كان اسمه (أنيس الرشدي)أم (أنيس الحوراني) أم (أنيس البقاعي)، فلقد تعود على الغربة، حتى في داخل بيته، فهو يصمت كثيراً، بينما امرأته تثرثر كثيراً، وهو يؤمن بالترتيب، وأولاده يمارسون الفوضى، وهو رجل مسالم، وأولاده عندهم استعداد للمشاغبة، وهو.. وهم.. وهو..وهم..

ولذلك أخذ أنيس ذو الأفق الواسع، يتعود على التعامل مع أهل حارته، تماماً كما يتعامل مع أولاده. ويحبهم، ويحاول تعليمهم، وجمع شملهم، للتوحد ضد العدو البعيد المشترك .

مجلة الكاتب العربي – ربيع 2005

البواخر!

الأُمَّة التي تفقد وعيها بالماضي، تفقد ذاتها تدريجياً .
ميلان كونديرا .

رحلة سياحية مخفضة. انطلقت الطائرة من نيويورك إلى السويد. بلاد جميلة، ومياه كثيرة، ونظافة وخضرة رائعة . استقبلهم رئيس بلدية ستوكهولم بحفاوة بالغة، وتجول معهم في ساحات البلدية قائلاً:

" هل تشاهدون الطراز العربي في معمار مبنى البلدية؟"

شعر جمال بالفخر، وهو العربي الوحيد في المجموعة. وقالت امرأة شقراء تقف إلى جواره: "وهل للعرب طراز معماري، غير الخيمة وجمل الصحراء؟" شعر جمال أنه محاصر، حتى في السويد. لم يرغب ببدء علاقته معها بالتنافر. فضل أن يغازلها، بدل التصادم معها . فضل أن يكون دبلوماسياً معها.

"عيناك زرقاوان بلون البحر، وشعرك أشقر بلون الأصداف البحرية، وملابسك خضراء، بلون الطحالب البحرية. هل أنت حورية من حوريات البحر؟" أعجبها الإطراء، وأنت تعرف النساء، تذوب الواحدة منهن كالشوكولاتة عند سماعها إطراءً. ضحكت وقالت :

" هذا الغزل لم أسمع به من قبل. أشكرك عليه. اسمي يائيل عوفر. أعمل مديرة مدرسة ثانوية في بروكلن ، عمري أربعة وأربعون عاماً. هاجر أهلي من وارسو إلى نيويورك، وها نحن نسكن في بروكلن."

"غير معقول." قال مغازلاً "تبدين وكأنك ابنة أربعة وعشرين ربيعاً، ما كل هذا الجمال؟ إنك ساحرة !" انفرجت أساريرها قائلة:

" من المؤكد إنك لست أمريكياً. فالأمريكان عندنا يحبون الهامبورغر، أكثر من النساء، ويغازلون الدولار، أكثر من حوريات البحر. من أين أنت ؟"

" أنا من بلاد طراز العمارة العربية، التي تحدث عنها رئيس البلدية." وهنا ارتعشت المرأة وهو يتابع قوله:" اسمي جمال محمود، أعمل مؤقتاً في نيويورك، تاجر أقمشة."

انكمش غرورها أمامه، وكأن موج البحر قد قذف الحورية، فارتطمت بصخور الشاطئ. كان جمال يبدو وديعاً، تأكل القطة عشاءه ، أسمر البشرة، ذو شعر حالك السواد . حاولت يائيل عوفر أن تتمالك نفسها، أمام صدمتها برجل عربي حنطي اللون، وكأن لا شيء يهمها، وقررت تمثيل الدور بأفضل ما يمكن :

" حقيقي! أنت من هناك؟ حدثني إذن عن الأشوريين، وعن البابليين، وعن إيوان كسرى. أحب أن اسمع شيئاً جديداً عن الجنائن المعلقة!"

في اليوم التالي، صعد جمال في الحافلة السياحية، فبحث عن يائيل بين المجموعة، ثم جلس إلى جوارها :

" صباح الخير.كيف أصبحت ؟" فوجئت به ، ولكنها مضطرة للإجابة الفرائحية، فقالت :" بخير." نظر من خلال الزجاج إلى المدينة وقال:" ربوع ستوكهولم جميلة " فأجابته بغرور:" ريف نيويورك أجمل."

" هل أنت من يهوديات بروكلن ؟" تأثرت وارتبكت، ولكنها أعادت توازنها قائلة: "كيف عرفت أنني يهودية؟" ثم كلمت نفسها قائلة:

" إن اليهود معروفون في كل مكان في العالم، وكأن العلامة التجارية مختومة على أنوفهم المعقوفة." ثم استدارت بوجهها نحوه ساخرة:

"ولكن أنفي ليس معقوفاً!" فأجابها باسماً :" عرفتك بكل بساطة، ذلك لأن كل أفراد المجموعة السياحية فرحون ببحار وحدائق وجزر وحضارة السويد، وأنت أهلكتني أمس بأسئلتك حول حمورابي، ونبوخذ نصر، وكيف اكتشف البابليون العجلة، قبل خمسة آلاف سنة، فخلقوا أساس الصناعة في العالم."

مرّت باخرة في عباب البحر. حاول جمال أن يغير الموضوع، إنه يحب الطبيعة، ومشاهدة تفاصيل معالمها، فسألها قائلاً :

" ماذا تعني لك البواخر يا يائيل؟" فتنهدت وقالت:

"الباخرة تعني لي الهجرة.. البعد.. الخوف.. التشتت، الضياع خلف البحار، أنا أكره البواخر، وأكره طيور اللقلق التي تطير خلفها، باحثة عن سمك يسهل التهامه.. إنها تثير الفزع في ذاكرتي المتعبة. البواخر تنقلنا من بلاد إلى بلاد أخرى. من بلاد الأشوريين، هاجر إبراهيم إلى مصر، ومن مصر أرسلته سارة إلى الجزيرة العربية، حيث وضع أهله في أرض غير ذي زرع، ومن مصر ضرب موسى الماء فانشق البحر الأحمر ، ثمّ تاه شرق مصر، ومن الشرق واجهنا الاندثار، تحت أقدام خيول السبي الصغير بالأشوريين، والسبي الكبير بالرومان، ثمّ هُجِّرنا إلى الأندلس، وعملنا سكرتاريا للعرب هناك، حتى دالت دولتهم."

تسائل جمال في داخل نفسه :

"هل سبب انهيار الأندلس، هو كون مساعدي ومستشاري الحكام العرب من اليهود، فأشاروا عليهم بما يدمر بنيتهم الاستيراتيجية؟"

تابعت يائيل حديثها :"ومن الأندلس تاه اليهود للمرة السابعة، وتناثروا في كل بقاع الدنيا، وكونوا الاشكناز والسفارديم، ومن أوروبا هاجروا بعد الحربين العالميتين ؛ الأولى والثانية، إلى فلسطين وأمريكا. كل تلك الهجرات، كانت تتم بالسفن والبواخر.البواخر بالنسبة لنا يا جمال سجون متحركة، أشغال شاقة في الهواء الطلق، وفي المواخير.. تنقلنا إلى حيث ألقت. الإنسان يحب أن يلتصق بالأرض، الأرض هي أمُّنا التي ولدنا عليها. نحب أن ننام في حضنها، ونرضع اللبن والعسل من ثدييها. الإنسان لا يحب أن يهاجر ويترك أمه، حتى الذي يموت، فإنه يوصي بأن يدفن في مسقط رأسه، لأنه يحب أن يعود إلى رحم أمه، وينام مطمئناً أن هناك أحداً يرعى استقراه. حتى الموت نحن محرومون منه بهدوء! البواخر تخلعنا من جذورنا، وتعبئنا، وتشحننا للتصدير! البواخر مقيتة يا جمال!"

لم يكن جمال قادراً على التعبير عن شعوره. ذلك لأنه قرأ في كتاب (كيف تكسب الآخرين) أنه عليك أن تستمع للآخرين، أكثر مما تحدثهم عن نفسك، كان يستمع كثيراً، ولا يعبر عن عمّا في ذاته. كان يعرف أن الله خلق للإنسان أذنين اثنتين، وفم واحد، كي يتحدث نصف ما يسمع من الكلمات، ولذلك لم يقل لها :

"إنني أكره البواخر مثلك. تلك البواخر التي كان يشاهدها جيل أبي من الفلسطينيين، في مينائي حيفا ويافا، وهي تجلب لهم المهاجرين اليهود من كل أنحاء الدنيا. كانت البواخر تنزل المجندين وذويهم في ميناء يافا، وكأنها حصان طرواده، المحشو بأسلحة المجندين. كانت بيوض اليهود الهاربين من

بطش الأوروبيين، تفقس تحت جلد فلسطين، فتنبت طفيليات (الحامول والهالوك) على الزرع الفلسطيني، فيذبل الزرع، ويذوي، وكثير منه يموت، ولولا حبوب سنبلة فلسطينية تجف، فتملأ الوادي سنابل، فتزهر فلسطين من جديد ببذور زرعها!" لم يقل لها : "إن البواخر بالنسبة للفلسطيني، هي لعنة رياح السموم، القادمة من الغرب إلى سفوح شواطئ فلسطين." لم يقل لها : إنني أيضاً أكره البواخر، التي أفزعت بصفيرها وحمولاتها من المجندين كل غزلان غابة الكرمل، وأطلقت النيران، فاصطادتها، وأكلت لحومها، على طريقة طعام الكبة النيئة!" لم يقل لها: "إن الأوروبيين شتتوا اليهود، فجاء اليهود بالبواخر ليشتتوا من لم يقتل من الفلسطينيين، ويقعدوا في أرضهم." لم يقل لها: "إننا لم نؤذكم في أوروبا، حتى تأتوا، وتدمرونا نحن وبلادنا!"

الحافلة السياحية تسير في أحياء استوكهولم ، والدليل السياحي لا يصمت. يتكلم ستين كلمة في الدقيقة :

" هذا الحي من البيوت الجميلة الهادئة، كل السكان هنا من الغجر أو النّوَر، فبنت لهم الدولة بيوتاً جميلة، ويتقاضى كل من لا يعمل منهم، راتباً شهرياً بلا عمل." فكنت تسمع تعليقات أفراد المجموعة السياحية:

"ما أحلى هذه البيوت!" وتقول أمريكية:"ليتني كنت غجرية في السويد"!

ويضيف عجوز غارق في مؤخرة الحافلة:" الناس هنا تعيش في هدوء وطمأنينة إنسانية. بساطة. فنون جميلة. وسيارات (سكانيا) العملاقة !" فيقول له أمريكي متعصب: عندنا جنرال موتورز أقوى!"

" أنا احب سيارات ساب." تقول واحدة تجلس إلى يسار.

" الحديد والصلب السويدي مميز في العالم ." يقول يميني المقعد.

توقف الباص إلى جوار المبنى الذي تمنح فيه جائزة نوبل. كان على شكل قبة سماوية، نصف كرة أرضية بيضاء .اصطف السياح أمام مطعم صغير، مكتوب فوق بابه (فول – فلافل – شاورما – شطائر شرقية) . صف طويل. نزلت يائيل من الحافلة، ولم تقف بالدور، بل اتجهت مباشرة إلى صندوق الدفع، وطلبت شطيرة! انزعج أفراد المجموعة المصطفون بالدور. وقال لها أحد السياح الأمريكان :

"ما هكذا تعلمنا أن نكون حضاريين! اصطفي بالدور! احترمي زملاءك في هذه الرحلة الطويلة !"

زعلت يائيل، ثم بكت قائلة: "أنتم تحقدون عليّ، لأنني سامية.أنتم تعادون السامية !"

هجم أفراد المجموعة عليها لاسترضائها، خائفين من عبارة "معاداة السامية". وانفرطت استقامة الدور، وسدت أنفس السياح، ولم يبق لهم رغبة بتناول الطعام، وزعل بائع الفلافل، لأنهم قطعوا رزقه، ونصيبه من المبيعات!

كان جمال راغباً في متابعة يائيل، والتحدث معها، والتعرف على أفكارها وشخصيتها، وأهدافها وتطلعاتها، تربيتها ومفاهيمها. مجرد رغبة بمعرفة الآخر. فقال لها :

" أنا أحب العينين الزرقاوين، والبشرة الشقراء، وبصفتي عربي أسمر، فإن عقدة البشرة الشقراء تطاردني، ولذلك تجدينني ألتصق بك، وأسير معك. إنها نزهة سياحية جميلة، وقت للهو يا يائيل!"

كان يجلس إلى جوارها في مقعد الحافلة، ويسير معها في أماكن التنزه، ويتحاور معها في أي موضوع:"هل أنت متزوجة يا يائيل؟"

"طبعاً متزوجة، ولدي ولدان، يدرسان القضاء في نيويورك."

"ما هي طموحاتك تجاههما ؟"

"أتمنى أن يتخرجا، فيهاجران إلى إسرائيل. يجب أن تقوم إسرائيل الكبرى يا جمال!"

"أصارحك القول يا يائيل، إنني أخاف على أطفالكم، على أجيالكم القادمة، فأنتم تنقلونهم برعاية مضللة، من أوروبا وأمريكا الجميلتين، إلى أرض اللبن والعسل في فلسطين، فيكتشفون أنها أرض المتفجرات والقنابل! أنا لا أفهم كيف تنقلون أجيالكم القادمة، من هذه البلاد الساحرة الجمال، الغزيرة الأموال، إلى أرض ليست لكم، وليست كما يصفونها لكم! تضعونهم في فم مليار ونصف مليار مسلم، في الشرق الكبير الذي تتحدثون عنه! تستسهلون الأمر في البداية، ولكن دخول الحمّام، ليس مثل الخروج منه! تقتلون الفلسطينيين والعرب والمسلمين هناك، فيقتلونكم. يبدو أن فيكم جينات الهجرة، فكما ذكرت لي : إنكم قد هاجرتم ثمان مرات، خلال ثلاثة آلاف سنة، بينما بقي اليونان والرومان والعرب والألمان، والصينيون واليابانيون والهنود، قابعون في أراضيهم، ولم يهاجروا منها، منذ ذلك الحين.ألا تلاحظين معي، أن مواصفات شخصيتكم غير هادئة، وخارطة خلاياكم الوراثية فيها جينات محفزة للتنقل، ولا تعرف القعود! ولا تستطيع الاستقرار حيث تنشده، شخصية قلقة، دائمة الهجرة؟ ترى لماذا هاجرتم ثمان هجرات تاريخية؟ وإلى أين ستكون هجرتكم التاسعة بعد فلسطين؟" ثارت يائيل وهي تقول:

"لا تقل فلسطين! إنها إسرائيل. ولن تكون بعد إسرائيل هجرة أخرى.إنها آخر مراحل التاريخ!" ضحك جمال ثم قال لها:

"لقد قال ماركس وإنجلز: إن الشيوعية هي آخر مراحل التاريخ، وها هي الشيوعية تنهار، وتعود الرأسمالية، أشرس مما كانت عليه في السابق! يا يائيل، لا يوجد شيء اسمه آخر مراحل التاريخ، فالتاريخ كالكرة الأرضية، دائم الحركة، وأنتم من طبيعتكم الحركة، ترى أين سيكون الرحيل القادم بعد فلسطين؟"

"لن نرحل هذه المرّة، لقد استفدنا من خبرات ثلاثة آلاف عام من الهجرة والكبت.لا تستهين بنا يا جمال، لن يعود أحد قادراً على أن يدوس على هذا الزمبرك اليهودي بعد ثلاثة آلاف عام من الكبت! نحن نتملك الآن رأس المال الأقوى في العالم، ونتملك السلطة."

"ولكن روجيه جارودي قال : إن رأس المال لن يستمر، لأنه لا يحقق الروح الإنسانية للذات البشرية، وسينهار كما انهارت الشيوعية، وأن لا نظام يحقق العدالة الإنسانية سوى الإسلام، الذي يقول : (الملك لله، وليس لصاحب رأس المال.) في يوم من الأيام، سينقلب التاريخ، ولن تبقى أمريكا تحميكم، انظري يا يائيل إلى اسكندنافيا، التي نحن فيها الآن، بالأمس كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية العظمى، التي لا تغرب عنها الشمس، من أستراليا وحتى أمريكا، تاريخ لم تحلم به حتى أمريكا العظمى، والآن تغير الزمان، ودارت الأيام، فغربت الشمس عنها، وتغير كل شيء، نحن ساميون مثلكم. وأنتم لا تستطيعون أن تزاودوا علينا بالسامية، لقد انصهر التتار الذين غزوا بغداد في البوتقة الإسلامية، فصاروا هم المغول الذين حملوا الراية، لنشر الإسلام في الهند. وارتد الصليبيون عن بلاد العرب، بعدما تأكدوا أن حياتهم

في الصحاري العربية مهزلة . لماذا لا تعودوا إلى بولندا، وروسيا وأمريكا الجميلات، فتتلذذون بالدولارات، وتشبعون غريزة شهوة النقود لديكم؟"

أدهشتها أفكاره، فازداد انتباهها لحديثه المخيف وهو يقول :

"تصوري أنه إذا تفوه أوروبي بكلمة نابية هناك، أو تمييز عنصري ضدكم، أو رفض فكرة الهولوكوست، فإنه يسجن ويعذب، فتعيشون أنتم هناك في نعيم! بينما أنتم هنا تقتلون الفلسطينيين، فيقتلونكم، وكلا الفعلين تدمير للشخصية اليهودية التي تتعلم صناعة القتل، بدل أن تتعلم صناعة المجوهرات ! لا نريد لأبنائكم أن يتشربوا القتل في عروقهم، لا نريد لكم أن تربوا جيلاً من القتلة! علموهم الطب والهندسة وعلوم الفضاء، ما دامت الظروف متاحة لكم في كل مكان من العالم . أليس ذلك أبهى وأجمل، وأغنى مالاً؟"

صارت يائيل تحلم كل ليلة بجمال، خائفة أن يطلع لها من تحت الأرض، ويدخل غرفة نومها، فيتجول بهدوء مخيف، ويرفع غطاء فراشها، فتصحو مذعورة ! ثم تدرك أنها في حلم، وليس علم، فتعود لنومها من جديد!

بدأت تفكر بجمال، وبأفكاره الخطيرة التي يطرحها! أخذت تعيد حساباتها. ترى ما الداعي لهذه المهزلة ! راحت تسأل نفسها :

- صحيح ما يقوله هذا العربي المجنون! وما يردده طوال اليوم على رأسي، كالأسطوانة المشروخة ؛

"من الأفضل لكم أن تتزلجوا على ثلوج جبال الألب، وتتزحلقوا على مياه بحيرات السويد، من أن تقدموا أنفسكم كدروع بشرية لزحف تحكم رأس المال الغربي في الشرق.. هؤلاء الغربيون يستخدمونكم كدروع بشرية، لتحقيق أهدافهم التوسعية. فمثلما استخدم لورنس، العرب بدل الإنجليز لمحاربة الأتراك، فالغربيون يستخدمونكم بدلاً عنهم لمحاربة مسلمي ومسيحيي العرب في الشرق. إنها لعبة قذرة !"

حديث هذا العربي المجنون بدأ يدخل دماغي. لا بد من الاستقرار في بلادنا. قد نكون مخطئين في تصرفاتنا.هؤلاء العرب من طبيعة صحراوية. فعلاً، عندما أشاهد النشرة الإخبارية بالتلفاز، تكون الكرة الأرضية كلها خضراء، ما عدا البلاد العربية، فكلها صفراء صحراوية. إنهم جزء من الصورة، جزء من الصحراء، بما فيها السحالي والصبارات والصنوبر والدفلى والتين والزيتون.. إنهم كالجمال الصحراوية، يصبرون، وهذا سبب بقائهم، وأما أبناؤنا، أبناء الذهب والمجوهرات، فكيف ننقلهم من براغ وفيينا وموسكو ونيويورك، ونزرعهم في صحاري متفجرة! خدعونا فقالوا إنها أرض اللبن والعسل، دخلناها فلم نجد فيها غير الدم والدموع التي لا تنتهي، وكثبان رملية متحركة، ليس فيها مياه ! يتحلقون حولك في رقصة يسمونها الدبكة، ويرقصون ويدورون، ثم يدورون ويدورون، وهم يتضاحكون، بينما أنا أشعر بالدوار، دوار البحر. لا بل دوار الصحراء! معدتي زائفة، أقذف الطعام المتحجر في معدتي !

وفي الصباح الأخير للرحلة، سألها جمال، وهو يجلس إلى جوارها في الحافلة السياحية :" ألن تشعري بالغربة، بعيداً عن ولديك الذين بعد تخرجهما من الجامعة، ستهجرينهما من أحضانك في بروكلين، إلى فلسطين؟" فأجابت منفعلة: " لا أبداً ! بالتأكيد، سوف أبقيهم إلى جواري! لقد سئمت غربة البواخر! ولن أبحث بعد اليوم عن مقر جديد. لقد اشتقت إلى بروكلين!"

2003

لعبة السعادة

ذاك الصباح الندي، وإشراقة ياسمينة الجميلة، بوجهها الشهي، طويلة القد، ضامرة البطن، ممتلئة الصدر والردفين، وفستانها الأزرق البحري، وهي تتلألأ بين أشجار اللوز، ذي الزهر الأبيض القطني، المتماهي مع ضباب شفافي يعبق المكان، تخترقه أشعة شمس فتية، تخلق سحراً رومانسياً، يتجلى فيه الخيال، وكل ما يخطر على البال، من مشاعر جمالية، صارت تنمو مع الصباح البهيج، الذي جعل سفيان الشهاب، يترنح نشواناً بحب ياسمينة، وعندما اقترب منها، لم يستطع أن يتمالك نفسه ، فخطبها وتزوجها فوراً..

في ليلة الفرح، حمل سفيان ياسمينة بين ذراعيه، وأقعدها في حضنه، على السرير، ثم قبلها بشهية، فشم من فيها رائحة عفونة، وامتص مع القبلة سائلاً، بصقه على الأرض، فشاهد أنه بني، وبه نزيف دم، فامتعض وصدّت نفسه عن تكرار القبلة، مرة أخرى، وكانت ياسمينة قد خلعت حذاءها، وهي تحتضن سفيان الشهاب، في تلك اللحظات الدراماتيكية، فقال لها سفيان :"شايفة القمر يا حبيبتي؟" فقالت :"نعم، شايفاه!" فقال لها :"رائحة عفونة رجليك، واصلة إلى القمر!" ورغم تلك الصدمة النفسية، التي جعلت سفيان ينشد مع نزار قباني: "وانتهى الحب الذي كنت أسميه عنيفا، عندما كنت سخيفا." إلا أنه كان شاباً متفائلاً، وذا ابتسامة عريضة، وأحياناً تجده يقهقه بأعلى صوته، وعندما يجامل أحداً، أو يسمع نكتة سمجة، وهو صاحب نظرية (الحياة قصيرة، فاستمتع بها) وكثيراً ما كان يحاول إقناعنا بوجهة نظره، قائلاً: "عندما يقابل شخص ما، شخصاً آخر، فأول ما يسأله:كيفك؟ وهو يعني: إلى أية درجة أنت مكيّف، أو مستمتع بالحياة؟" وكثيراً ما كان يقول : "إن فرصة الإنسان للحياة في هذا الكون، هي فرصة نادرة لدرجة عجيبة، فمن بين كل المجرات الفضائية اللانهائية، كان حظه أن جاء على شكل مادة، على كوكب الأرض، وليس على كوكب المريخ، أو زحل مثلاً، وكان حظه، أن جاء على هيئة إنسان، وليس على هيئة حجر، أو شجرة، أو جحش مثلاً، أو نملة تدوسها الأقدام . وكانت فرصة وجوده هو، وليس غيره، واحداً من بين مليارات الحيوانات المنوية، التي قذفها أبوه طيلة حياته الجنسية، بهدف المتعة والخلف والنسل، وإنتاج الأولاد والبنات، للحفاظ على عنصر البقاء . فرصة مذهلة ! كيف كانت الفرصة مهيأة له هو، وليس لحيوان منوي آخر غيره! فوجد نفسه ينظر يميناً ويساراً، فيرى الأشياء حوله، ويساهم في اكتشاف الكون، وتطويره، أو تدميره! كل حسب شخصيته ودوره!"

وكان سفيان لا يتوقف عن محاولاته للاستمتاع بتلك الحياة القصيرة، مهما طالت، فهو يحب مشاهدة الأفلام ، ويذهب لمشاهدة المسرحيات، فيكتشف أن قصة حب قيس وليلى، وروميو وجولييت، والأميرة ديانا ودودي الفايد، وعماد وعذبة، وحسن ونعيمة، كلها قصص تنتهي بالعذاب والدمار، فتتلوث لحظات سعادته، وتحترق أطراف أصابعه، ورموش عينيه، ويحس بالتهابات، وآلام في رأسه وجسده، ولكنه يبقى مع ذلك، ينشد السعادة، إنه لا ييأس، فلا يأس مع الحياة."

وكالعادة، تقاتل مع زوجه ياسمينة، ذات ليلة، فقرر أن يترك لها البيت، ويخرج للبحث عن الحرية والسعادة خارج مخدعها، فقفزت إلى مخيلته أغنية التوأمان ؛ جبران خليل جبران، وفيروز الرحبانية :"هل فرشت العشب ليلاً، وتلحفت الفضاء ؟" فقرر أن يفترش العشب ليلاً، ويلتحف الفضاء، ولكنه في

تلك الليلة التشرينية، زاره سكارى كثيرون، وأفاع ولصوص، وقطاع طرق، وضالون، وخارجون على القانون، فأصيب ببرد قارس، والتهاب في الرئتين، ونقل من هناك إلى المستشفى، حيث دفع ميزانية الخطة الخمسية للتنمية الصحية التي كان يكتنزها، مع الذين يكنزون الذهب والفضة، في البنك الدولي، للخروج من التابوت، والدخول من هناك إلى بيت الطاعة، من جديد.

انتبه سفيان الشهاب إلى أن (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فاتجه ليكون رأسمالياً، فناطح وكافح، للحصول على المال، فوجد أنه تألم كثيراً، وأهين كثيراً، عندما كانوا يزحفونه من تحت الأسلاك الشائكة، ليمر باتجاه النقود، وكان لا يصل أحياناً، فيتألم، وأحياناً يصل، فيشعر أنه قد شرب من المهانة، أضعاف ما قد يستمتع به، في صرف تلك النقود، واللهو بالثروة التي قد حصل عليها، وهو يشاهد المنافسين والحساد يحاصرونه، ويكشرون له عن أنيابهم، ويلمزون له بأصابعهم، وألسنتهم التي تطول، حتى تلحس الأرض، ويأكلون كعكة عيده، بعيونهم التي تتسع كل منها، كحدقة عين الشمس، وهم يتحركون حوله كالنمل المتحرك في كل الاتجاهات، حول (صرصار حبنا).

فكر سفيان الشهاب، أنه سيكون من المتعة، أن يكون ذا علاقة وجاهية مع رئيس البلدية، فاكتشف أنه إذا أحبه الرئيس، عينه خادماً لديه، وإذا غضب منه الرئيس، أحرقه، كما أحرق المنصور، أديب كليلة ودمنة، عبد الله بن المقفع، عليه السلام، ليس لسبب، سوى أن يدخل المنصورالتاريخ، بصحبة وبشفاعة عبد الله بن المقفع ! وأمام كل ذلك، لم يشعر سفيان بالسعادة المرجوة!

وأخيراً قرر أن يجعل أولاده مصدر متعته وسعادته، فنقل بأسمائهم كل ممتلكاته وعقاراته، كي يشعرهم بالمحبة، يقذفها باتجاههم كالكرة، فيردونها إليه، ويلعبون معاً لعبة السعادة، فإذا بالولد سعيد، يمسك بالكرة، ويحجبها، فلا يعيدها لأبيه، بحجة أن الأب لا يتقن اللعب والحركة، وخير له أن يجلس على صومه وصلاته، فهو (الحاج سفيان الشهاب) بعد اليوم .

وعندما احتاج الحاج سفيان عملية (تنظير) لقلبه، الذي حمل كل طموحاته وأحزانه، لم تعترف به شركة التأمين، بحجة أن هذا المرض مزمن، أو أن هذا الحاج، فوق سن الستين، أو أية حجة من الحجج، التي تتحجج بها شركات التأمين عادة ، عندما يحتاجها المؤمِن، أو المؤمن عليه، والذي لا يعرف أنه من مأمنه يؤتى المؤمن تأمينه، فالتجأ الحاج إلى أولاده الذين لم يوافقوا على إدخاله المستشفى، من أصله، ذلك لأن أباهم حاج، كبير في السن، حسب رأيهم، ولا يحتمل عمليات جراحية، وأن العملية مكلفة أكثر من النتائج المرجوة منها، وقال ابنه سعيد : إن (الكبر عبر)، ونحن لا نريد أن نشاهد أبانا يتعذب في المستشفيات، بل نريده أن يبقى معنا في البيت، كي نستمتع بدفء وجوده معنا.

وعندما كان الحاج سفيان الشهاب، في مرحلة الغرغرة، بين الحياة والموت، مرت كل هذه الذكريات بمخه، حيث يقولون إن المخ يبقى آخر جندي يحرس الموت، وكان محتاراً بهذه الحياة اللذيذة المقيتة، المدهشة المسئمة، الممتعة المقرفة، الحبيبة البغيضة، الحرة المقيدة، الواسعة الضيقة، القريبة البعيدة، الجنة النار، المادة المقبوضة كالبخار، اللانهائية المدى، ضيقة القبر، كخرم الإبرة .

مات الحاج سفيان الشهاب، وهو مستمر بالتفكير في أعجوبة تلك الحياة، حتى خلصت طاقته، وانطفأت شعلة سراجه!

اللعب على الحبال!

كان يا ما كان، في حديث الزمان، وحاضر العصر والأوان، أمواج من الغولة المدججين بكل أنواع الأسلحة الشريرة، التي لا يعرفها البسطاء من الناس. جاءوا من البحر، فجرفوا الجبال والوديان، وهدموا بيوت حيفا ورفح والخليل، وقتلوا كل من واجههم، وقذفوا بباقي المشردين إلى شرق نهر الأردن، وكان الأطفال يلعبون على حلبات المصارعة، ويتصايحون ويضحكون، ويأكلون الزعتر وزيت الزيتون. واشتدت الريح القادمة من البحر، فأنزل الغرباء ذخيرتهم وقنابلهم ومتفجراتهم من السفن العملاقة، وفجروا بيوت يافا، وقتلوا النائمين في الطنطورة ، وقذفوا بمن لم يقتل شرق نهر دجلة، وكان الأولاد يتدربون على حلبات المصارعة، ويتباطحون ويأكلون من أعشاب الأرض؛ الشومر والخس البري، ويتصايحون ويضحكون. ثم عصفت العواصف البحرية بأعداد هائلة من الغولة.. كان البحر يلد حيتانا طروادية ، بطونها مملوءة بلصوص البحر، يحملون متفجراتهم الخارقة الحارقة، ويخرجون من بطون الحيتان ، ويهاجمون الناس الآمنين في بيوتهم، ففجروا بيوت مدينة نابلس. جاؤوا من البحر الأبيض، فقتلوا الخضر الأخضر، واقتحموا الخط الأحمر، ولوثوا الماء الأزرق، وأكدوا قدوم الزمن الأصفر! كانت الأحداث تتقدم بالألوان. وحملوا من لم يقتل، فقذفوا بهم شرق طهران، وكان الشباب يتدربون على القفز على الحبال، ويزداد عددهم وهم يتصايحون، ويضحكون كثيرا.. وازداد الشر ضراوة! كان الغولة يخرجون من البحر، كأسماك القرش البرمائية، ففجروا وجرفوا بيوت رام الله، وقتلوا شيخ المسجد، وباقي المصلين، ومن رفض الخروج من الجنة، وهدموا البيوت فوق رؤوس أصحابها، وقذفوا بمن نجا من الموت باعجوبة، إلى شرق باكستان، وكانت النساء الكنعانيات الجذور تزغرد، والشباب يرقصون في حلقات الدبكة، وأرغول وعتابا وميجنا،

"ويا زريف الطول، ويا ابو بنطلون !

مروا من هنا، ونحن قاعدين هون !"

ورغم الأعاصير والحمم البركانية، ظل الناس قاعدون. واحتموا بالمغارات. فعادوا إلى عصر الإنسان الأول.

تلك هي الحضارة الغولية. تبرز نفسها، وترفض الآخر. فحتى يظهرون متحضرين، وأنهم يسكنون البيوت الديمقراطية، والشقق الحضارية، ويأكلون بالشوكة والسكين، يجب إجبار الآخرين على أن يعودوا إلى عصر المغارات والخيام. يعيدونهم إلى عصر الفايكنج . يصورونهم على أنهم جذور في البيئة.هذا هو الإنسان الأول، وإنما أتيناكم لننشر الحضارة والديموقراطية. وهكذا نشروا القنابل والمتفجرات في كل مكان. كان الشبان والشابات يرقصون ويغنون مع سلوى وجميل العاص:" وين عا رام الله،

ولفي يا مسافر، وين عا رام الله،

أخذت قليبي وما تخاف من الله !"

راح الناس يتجهون إلى رام الله، ويقاومون الأعاصير ورياح السموم، ويتدربون على حلبات المصارعة، كان المدرب علي اللبناني يدربهم، فيرميهم باتجاه الحبل، فيرتطم جسد الواحد منهم بالحبل الأيمن، ثم يرتد سريعا باتجاه الحبل الأيسر، في أقصى الحلبة. الحبل نفسه يقذفك من أقصى اليمين، إلى أقصى اليسار، وهذا ما يسمونه بالارتداد. وكان المدرب حسن الصعيدي، المدفون في سيناء، يقول لهم:

" لكل فعل رد فعل، مساو له في القوة، ومعاكس له في الاتجاه. فإذا قذفتك داخل حلبة المصارعة، فارتطمت بالحبل، فإنك سترتد عنه بنفس القوة، باتجاه الحبل الآخر، في أقصى الحلبة. وعندما مرت نيران كمبيوتراتهم، فأذابت خيام مخيم جنين وبراكياتهم الصفيحية، ودمرت من فيها، وقتلت مقاومي الاقتلاع، والصامدين داخل بيوتهم، وشردت من لم يقتل، ثم قذفوا بهم إلى شرق ماليزيا.

في تلك اللحظات، كان الرجال والنساء في مخيم جنين، يصنعون الأطفال، ويدربوهم على حبال خشبة المصارعة، ويعلموهم كيف يرتدون بنفس القوة، بالاتجاه المعاكس. وعندما فجروا مآذن القدس، وقطعوا أجراس بيت لحم، وسرقو حلي مريم العذراء ، قرروا إجلاء جميع من تبقى، إلى جزيرة من جزر غرب أندونيسيا. ولكن التلاحمة والمقادسة، كانوا يضحكون، وأبناؤهم يملأون الشوارع، وهم يلعبون على الحبال ويتكاثرون، ويزدادون تألقاً مع الأحداث.. مرت طائرات مقاتلة فوق رؤوس اللاعبين، فغمزتهم بإشعاعات ملونة. وجاءت دبابة مجنونة، من نوع مركافا، إلى ساحة اللاعبين، وسألتهم مغتاظة :

"لماذا تضحكون ؟! ألا تعلمون أن الضحك بلا سبب، من قلة الأدب؟ وعلى ماذا تتدربون؟ هل الآن وقت الرياضة والحبال؟ كانت الدبابة تتحدث بكل اللغات، وأخوات مركافا يحرسنها، فالماركافا دبابة ذكية، ولكنها تخاف من الناس، لأنها داست على طفل خليلي، في شارع مكتظ بالناس، فهرست عظامه، ولكن عظمة من عظام الطفل انشرخت، ففجرت الدبابة، فتناثرت عظامها الحديدية، وزفرت كل معالم الشارع. ومن يومها صارت الماركافات تخاف من الأطفال، ولكنها تتحدث مع الناس وتحاورهم بطريقة ديموقراطية وحضارية، فقال لها أحد الزعران :

" نحن نضحك ساخرين منكم! وتدريبنا على الحبال، يعلمنا أنكم، كلما قذفتمونا على أقصى حبال الدنيا، فإن ارتدادنا سيكون أعظم! فلو هجرتمونا إلى شرق أندونيسيا، فسوف نرتد من هناك، إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، وعلى الشاطىء تماما، لنبني بيوتا بديلة للتي هدمتموها.إنها نظرية علمية بحتة، (لكل فعل رد فعل، مساو له في القوة، ومضاد له في الاتجاه !)

وعندما فشلت المركافات في إتمام سعيها المحموم لتجريف الجبال، وتجفيف الأنهار، وتسويتها بالوديان والبحار، لملمت أغراضها، وجمعت أشلاءها، ودخلت في بطن حصان طروادة، الذي حملها، وأعادها مع الرياح الشرقية التي تهب غرباً، لترجع إلى حيث أتت . وتنفس الناس الصعداء .

و"توتة توتة، خلصت الحدوتة!"

الرجل الرمادي!

عندما صدر مرسوم سلطاني، يمنع الاجتماعات، لأكثر من شخص واحد، وذلك بمناسبة الظروف العصيبة، التي تجتاح المنطقة العربية، نظر الرجل الرمادي إليها، بحسرة وتلهف، وتيقن أنه لن يكون قادراً على الوفاء بوعده لها؛ إنجاب الأطفال!

جريدة الأسبوع الأدبي 7-5-2005

مبيعات روائية

في المعرض العربي للكتاب، صاح بائع الكتب، مستبشراً بالرجل الذي اشترى منه ثلاث نسخ من الرواية ؛ عرفتك.عرفتك . مؤكد أنك أنت مؤلف الرواية ! وعند انتهاء المعرض، وحصر المبيعات، تأكدوا أنه لم يبع من تلك الرواية، سوى النسخ الثلاث المذكورة، وأما المؤلف، فقد اختفى!

جريدة الأسبوع الأدبي 7-5-2005

جميلة بوحيرد

في عام 1962 زارت المناضلة الجزائرية ؛ جميلة بوحيرد، مدينة بهارستان العربية، بهدف توصيل الرسالة الإعلامية للثورة الجزائرية إلى الوطن العربي، واحتشدت جموع غفيرة من المواطنين لاستقبالها

في ساحة المطار، فخرجت من المطار، مع الجموع العربية الهادرة، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم، مرددين عبارة :

بدنا وحدة عربية !

بدنا وحدة عربية !

بدنا وحدة عربية !

وكان عبد الودود يسير مع المتظاهرين، في نهاية الرتل، يهتف وهو ناعس، وفكه مرتخي :

- بدنا واحدة عربية . بدنا واحدة عربية . بدنا واحدة عربية.

عبد الواحد

خلال اجتماعهم الأول، اختلف الشركاء العرب الأربعة الكبار، حول السوق السوداء، التي تتم خارج سوقهم العربية المشتركة، ودار بينهم حوار وسجال،

وسلام وكلام، وهمس وصراخ. سوق سوداء. سوق بيضاء . سوق خضراء. سوق حمراء. فتدخل رئيس مجلس الإدارة، السيد عبد الواحد، وقال لشريكه الثالث (با الفقيه)، بالقلم العريض، وبدون مجاملة:

"لا تتفلسف علينا، إذا لم تعجبك قراراتنا، بع أسهمك، وخذ حصتك، واخرج من الشركة!" فزعل التاجر با الفقيه، على هذه الدكتاتورية الأخوية، وقرر أن يأخذ حصته، ويخرج من الشركة.

وفي تلك الليلة، غيّر الشركاء اسم الشركة، المثبت فوق السوق العربي التجاري المشترك، فبدل أن كان (عبد الواحد وشركاه) أصبح

(عبد الواحد وشريكيه).

وفي الاجتماع الثاني، اختلف الشركاء الثلاثة، حول تحديد يوم موحد لعيد الفطر السعيد، لجميع الشركاء، في سوقهم الحرة العربية، حيث قال عبد الواحد : "سيكون العيد يوم الجمعة." وقال لحميدي :

"سيكون العيد يوم الخميس." فقال حبيليص حذراً متخوفاً :

"أنا سأعيِّد يوم الأربعاء، قبل أن تلغو العيد نهائياً ." فزعل عبد الواحد وقال لشريكه الثاني حبيليص :

"لا تتفلسف علينا ! إذا رفضت تعليماتنا، فبع أسهمك في الشركة، وخذ حصتك، وانصرف من الاجتماعات! فكشر حبيليص عن أنيابه، وقرر أن يأخذ حصته، ويخرج من الشركة.

وفي تلك الليلة، غير الشريكان اسم الشركة، وثبّتا مكانها لافتة جديدة، بعنوان (عبد الواحد وشريكه)

وفي الاجتماع الثالث، اختلف الشريكان حول التداول، باليورو أم بالدولار، فقال لحميدي لعبد الواحد :

" دعنا نتعامل باليورو، تيمناً بالسوق الأوروبية المشتركة."

فأجابه عبد الواحد بصرامة، ورباطة جأش :

" قلت بالدولار، يعني بالدولار! أنت لا تعرف أن أمريكا صاحبة الدولار، هي اليوم، أمُّ الدنيا! فاعترض لحميدي على هذا التبرير، وقال:

" ولكن أمريكا اليوم، تباطح مثل الوعل الذي يحمل على قرونه الكرة الأرضية كلها. وفي هذا مخاطرة مذهلة، ستؤدي إلى انهيار الدولار نهائياً، فنفقد معها اقتصادنا الذي سيحترق بذنوبها!" فتضايق عبد الواحد، وأشار بسبابته، باتجاه شريكه لحميدي، قائلاً :

" لا تتفلسف عليّ ! إذا لم تعجبك قراراتي، فخذ حصتك من الشركة وانصرف!" فزعل لحميدي، وقرر أن يأخذ حصته، ويخرج من الشركة. وفي تلك الليلة، غير عبد الواحد اللافتة، وثبت مكانها لافتة جديدة، بعنوان

(عبد الواحد، لا شريك له)!

الأسبوع الأدبي 7-5-2005